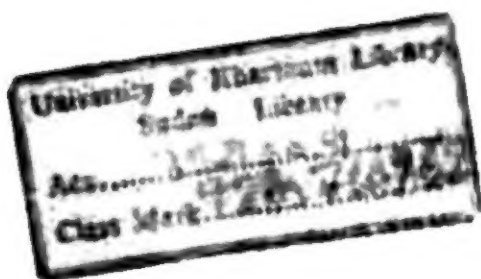


شركة بيت الخرطوم للطباعة والنشر

رجال حول المهدي

أمينة فيفيان ياجي

الطبعة الأولى إبريل ٢٠٠١



اسم المؤلف: أمينة فيفيان ياجي
عنوان الكتاب: رجال حول المهدي
الناشر: شركة بيت الخرطوم للطباعة والنشر
الطبعة الأولى ابريل ٢٠٠١
جميع حقوق الطبع محفوظة

604

تصنيف

مجلد اول
مجلد دوم
مجلد سوم
مجلد چهارم
مجلد پنجم

رجال حول المهدي



امینة فیضیان یاجی

شكر وتقدير

- * الى كل الذين أسهمو بجهدهم فى إعداد هذه الترجمة .
- * وأخص منهم مكى بشير مصطفى الذى لولا مثابرته وصبره الفائق لما رأى هذا الكتاب النور .
- * الى عبد المنعم الشاذلى الذى تفضل بمراجعة الترجمة.
- * الى كل اولئك الذين أمدونى بمعلومات شخصية عن الرجال الذين قامت المهدية على أكتافهم من أسلافهم . اليهم جميعا أوجه شكرى الجزيل ، وجزاهم الله خيرا على كل ما قدموه .

إهداء

إلى ذكرى شهداء كبرى وأم ديكورات والى كل
اولئك الذين جعلوني أحب السودان أمواتاً وأحياءاً.

نبى ابنى بالأبطال من أسلافه

دليه جاهدة على السير فى دربهم

حديثه عن مآثر شعت بها أسماؤهم

وعن فعالهم بدلا عن من كانوا

راسين ، أندروماك ،

الفصل الرابع المشهد الأول

تعطلت لغة الأحياء وحدثنى أولئك الذين الذين مضوا

أنا دونواى

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

فانى أخاف عليكم أن تلتفوا

المعري

تقديم

مؤلفة هذا الكتاب الدكتورة أمينة فيفيان ياجي فرنسية الأصل والنشأة وسودانية تجنسا، تزوجت الدبلوماسي الراحل الدكتور ياجي وشاركته حياته وملأته فكرا وسعادة ، ثم استقرت معه في السودان ، وأحبت هذا البلد حبها لزوجها وأخلصت له ونذرت نفسها تعلم اللغة الفرنسية لأبناء السودان وتكتب في تاريخ السودان بجد ومثابرة.

عنيت الدكتورة أمينة بترجمة تاريخ نعوم شقير ، وهو كتاب يتناول جغرافية السودان اقليميا وبشريا . وتاريخ السودان من أقدم عصوره إلى وقت تأليفه وهو أوائل العهد الثنائي . وهو أول مؤلف يتناول السودان بهذا الطول وهذا التفصيل ، بل وبالذقة على غير ما يقال عنه تعجلا ، وهو يستحق بغير شك الترجمة الى اللغة العالمية الثانية . وقد أحسنت الدكتورة اذ قامت بهذه المهمة ، اذ نقلت المهتمين بتاريخ السودان من الفرنسيين من المائدة الانجليزية الى المائدة الفرنسية التي يأثسون اليها.

ثم أعدت اطروحتها للدكتوراه في دراسة لشخصية الخليفة عبد الله ودوره التاريخي ، وبما أن الدراسة كانت باللغة الفرنسية فإننا لم نقف على ما صنعت الدكتورة ، الا أنه من الواضح من دراساتها التي عرضتها في بعض المؤتمرات التاريخية أنها تعطف على الخليفة عبد الله وتنظر الى دوره بايجابية مخالفة في ذلك النظرة التقليدية السلبية لهذه الشخصية الرئيسية في تاريخ السودان . ولها دراسات متفرقة في تاريخ السودان ، قرأت بعضها في المؤتمرات وبعضها الآخر نشر وبعض آخر لم ينشر .

وفي هذا الكتاب الصغير تتناول الدكتورة بالدراسة عددا من الشخصيات الرئيسية في تاريخ المهدية ، وقد بدأت بالخليفة عبد الله وامتدت الى بعض أقاربه ممن تولوا مسئوليات كبيرة في عهده والى بعض من تولوا المهام من غير قرابته . وقد استعانت في ذلك بما توصلت اليه من مطالعاتها في التاريخ وبما وقفت عليه من مصادر أسرة الخليفة عبد الله وأسر من ترجمت لهم وبعض اللصيقين بهم ، وقد فعل ذلك من قبلها نعوم شقير والمؤرخ العسكري عصمت زلفو في بحوثه المتعددة .

تتناول الباحثة شخصياتها عن قرب متبعة الخلفية الأسرية والنشأة ثم في مسرح العمل

مقدمة

هذه الصفحات لا تزعم لنفسها بعداً علمياً ، فهي ليست سوى سير كسير الرجال العظام التي كتبها بلوتارك^(١) . إنها سير رجال تركوا الدنيا وما فيها ولبوا النداء ، إنهم رجال جاعوا من مختلف أرجاء السودان : بدو وحضر سادة وعبيد ، أجابوا جميعهم بقولهم « لييك » وختموا على قسمهم بدمائهم ، لقد قاتلوا بلا توقف ولا هوادة في سبيل الغاية التي وضعوها نصب أعينهم وهي إعادة صفاء الاسلام ونقاؤه كما كان في صدر الإسلام وذلك تحت راية الدعوة المهدية .

هؤلاء هم الرجال الذين قامت على أكتافهم وهم أكثر ، منهم من حفظ الناس ذكراه ومنهم من نسوه .

والأمراء الذي أقدمهم هنا هم أولئك الذين خاطبوا وجداني قبل أن يسبلوا واكف دمعى ، لقد وقفت على أرض كررى ، واستعدت في ذهني بل تمثلت أمامي هجمات جند الله البطولية التي قادها الأميران عثمان أوزق وإبراهيم الخليل ، ورغم أن نيران المدافع قد حصدت مجاهدى الراية الزرقاء ومزقتهم كل ممزق ، فإن قتالهم كان قد استمر ، وظلت الراية عالية حتى استشهدوا عن بكرة أبيهم أجل ، إن الموتى في كررى قد تحدثوا إلى حقا . أما في أم ديكركات فقد زالت الحمى والاضطراب اللذان كانا قد تملكاني في كررى ، وحلت محلها طمأنينة القسم الذي تم الوفاء له ، لقد أدى رجال المهدية مهمتهم ويمكنهم الان أن يضعوا سلاحهم وأن يتلقوا الموت بهدوء فهو طريقهم الى جنات الخلد والنعيم الذي لا يزول .

(١) بلوتارك : فيلسوف وكاتب إغريقى ، ولد في القرن الأول الميلادى ، وقد اشتهر بكتابة سير الرجال العظام .
(المترجم) .

لقد ذرفت الدمع مدراراً في كررى من أجل أناس أعزاء على النفس ماتوا من أجل غاية سامية ، نفخر بها، بيد أن موتهم يمزق نياط القلوب .

أما في أم ديكرات فقد كانت حرارة اللقيا ، لقاء أصدقاء فارقتهم منذ زمن طويل ، أو قل هو الإحساس الذي نحس به تجاه من يفارقوننا ولكننا نعلم أننا سنلتقى بهم يوماً ما .
أتمنى أن تشعل هذه الصفحات الرغبة في نفوس قارئها لمعرفة المزيد عن حياة هؤلاء الأبطال وللكتابة عنهم .

وأرجو ألا أكون قد ظلمتهم وأنا أتبع حياتهم وأفعالهم ، فانا أعلم علم اليقين أنى يوماً أتساقبلهم .

أم درمان ٢٤ سبتمبر ١٩٨٩م

ال خليفة عبد الله

فى أكثر الأماكن كثافة وسط إحدى غابات جنوب دارفور ، وفى مكان يجمع بالحيوانات المتوحشة ، تسلل فتى وسط الأشجار ، كان متسلحاً بحربة فى يده وسكين على ذراعه شأن كل الرجال فى ذلك الزمان . وكانت تلوح على وجهه أمارات حزن عميق ممزوجة بإصرار شديد ، ورغم أن ظاهره يتم عن ألم دفين غير أنه كان بادرى التحدى والإصرار تجاه الموت والقدر ، شأنه فى ذلك شأن المقاتل الناهب إلى حرب غير مأمول العودة منها ، بيد أن التصميم على خوضها حتى الموت يملأ كل جوانحه . ذلك الفتى كان هو عبد الله بن الشيخ محمد ، حفيد الشيخ على الكرار - شيخ الطريقة السمانية فى دارفور ، ففى ذلك الصباح كان الشيخ محمد جالساً ، كمادته كل يوم ، فى مسجده يحيط به حيرانه (تلاميذه) وأبنائه . وكان الشيخ محمد قد بدأ الدرس حينما دخل عليه ابنه عبد الله ليأخذ مجلسه المعتاد بين رفاقه ، توقف والده عن الكلام وتأمله ملياً فى صمت ثم قال له :

إن مكانك ليس يمتنا

فانسحب الفتى والحيرة تمزقه ، أى ذنب جناه حتى يطرده والده بتلك الصورة المهينة من حلقة الدرس اليومية.

فجأة قرر عبد الله أمراً وهو أن يعرض نفسه لابتلاء الله وقال فى نفسه :

(سأذهب إلى الغابة حيث تجتمع الأسود فإذا نجوت فإن فى ذلك دليل على أننى لم أقترف ذنباً وأن والدى لم يكن على حق ، وإذا مت فإن ذلك البرهان على أنه كان على حق وأننى عوقبت على ذنب ارتكبته دون علم ، فاحكم بيننا يا إلهى وأظهر الحق) .

لم يحمل عبد الله معه شيئاً سوى حريته ، وتوغل فى جوف الغابة حيث اعتاد الصيد . إذ إنه كان ماهراً فى صيد الأسود والحيوانات المتوحشة الأخرى . وفجأة قفز عليه أسد قبل أن يتمكن من الدفاع عن نفسه ، وحمله بين فكيه وذهب به إلى المسجد حيث كان والده يقوم بتدريس طلابه . وقبل أن يفيق الشيخ وطلابه من دهشتهم قفز الأسد فوق رؤوس الطلاب ووضع عبد الله عند قدمى والده وخرج . رفع الشيخ محمد ابنه وسأله بصوت متهدج :

لماذا فعلت هذا يا بني ؟

فأجابه عبد الله :

أردت أن يتلبنى الله وأن أعرف مافعلته حتى أستحق سحقك عليّ وطردك إياي من حلقة
الدرس . فلو نجاني الله من الهلاك فإن ذلك الدليل على براءتي ، وأما إذا مت بين مخالف
الأسد وبرائته فإن ذلك يعني أني استحق غضبك عليّ .

فأجابه الشيخ قائلاً :

يا بني إنني لم أغضب عليك ، غير أنه يجب عليك أن تعلم بسهولة شديدة أن مكانك لم
يعد بيتنا ، هناك شيخ آخر يجب أن تبعه وسيكون هذا الشيخ هو المهدي المنتظر وستكون
خليفته ، وقد حان الوقت لتذهب وتبحث عنه .

وقعت هذه الحادثة قبل مغادرة الشيخ على الكرار لدير التعاشية.^(١)

وعبد الله هو الابن الثاني للشيخ محمد الذي لقب بتورشين^(٢) نسبة لشجاعته وصفاته
البطولية ، وقد كانت كل عائلته والتي يرجع نسبها إلى الرسول ﷺ من علماء الإسلام أباً
عن جد . هاجر أسلاف الشيخ محمد إلى تونس بعد النكبات التي حلت بأحفاد العلويين ،
حيث استقر جدهم الأكبر الشيخ محمد القطبي الواوي عبدالله زعيم الطريقة السمانية الذي
كان يعتبر قطب زمانه ، بمعنى أنه كان الإمام الروحي الذي يقود أولياء الله إلى الباطن ، أما في
الظاهر فهو الشيخ الذي يقود البشر إلى الطريق القويم إلى يوم الدين . وكان قبل وفاته في
تونس قد طلب من أبنائه الهجرة إلى شرق إفريقيا لنشر الإسلام فيها . وكان أحد مريدي الشيخ
عبد الكريم السمانى^(٣) واسمه الجنيد^(٤) قد ترك الحجاز وأقام وعائلته في جنوب دارفور وقد
استمر أحد أحفاده ، واسمه التعيش^(٥) ، على الطريقة السمانية بينما اعتنقت بقية القبائل
المنحدرة من الشيخ الجنيد الطريقة التجانية .

قرر الشيخ موسى بن الشيخ محمد القطبي الانضمام لهذه الطريقة السمانية وحضر إلى دار
التعاشية في جنوب دارفور ، ثم تزوج بإحدى بنات أم سرّة من قبيلة الجبارات . وتوفي
بعد أن أسس خلوة ومسجداً ، تاركاً ثلاثة أولاد على الكرار وعثمان وعمر^(٦) ، فخلف على
الكرار والده على زعامة الطريقة السمانية . استمر في تعليم القرآن مثل والده ، حيث أنشأ عدة
خلاوي ومساجد في دار التعاشية والدير المجاورة لها ، كذلك كان يساعد ابنه محمد
الذي أصبح بدوره شيخاً معروفاً بالورع وبمعرفة الفقه وعلوم القرآن الكريم . ثم قرر على
الكرار الذهاب إلى الحج والإقامة بمكة ، فترك ديار التعاشية يتبعه أبنائه وأخته وعائلاتهم

ومريدوه. وحيثما ذهب كان الناس يطالبونه بالإقامة بينهم وتعليمهم مبادئ الدين وقراءة القرآن ، وقام الشيخ على الكرار بتأسيس عدة خلاوى حتى وصل إلى هجليج فى دار الرزيقات حيث توفى إلى رحمة مولاہ ودفن فيها . وبعد دفنه تحرك ابنه محمد صوب الشرق تبعه بقية عشيرته . وكما كان يحدث مع والده من قبل فحيثما حل كان يستوقفه الناس ويرجونہ أن يقيم بينهم لكي يعلمهم أمور دينهم ، فنهض بتأسيس عدد من الخلاوى والمساجد ، ولما وصل إلى دار جمع طلب منه الشيخ عساكر ابو كلام الإقامة بين ظهرانيهم وتعليمهم شرع الله . ولما كان الشيخ محمد قد أسن وأضعف المرض جسمه فقد وافق ونزل على رغبة الشيخ عساكر أبى كلام.

كان الشيخ محمد قبل مفارطته ديار التعاشة قد تزوج بإحدى بنات أم سرّة وتدعى أم نعيم^(٦) التى أنجبت من زوج سابق ابناً اسمه السمانى وابنة اسمها عائشة، أم نعيم^(٧) هي والدة الخليفة عبد الله الذى ولد عام ١٨٤١م^(٨) والدة هارون وحليمة ، وقد أنجب الشيخ محمد من زيجاته المتعددة أربعة أولاد وبتناً يعقوب وعبدالله ويوسف وهارون وابنته حليمة التى تزوجها فيما بعد الخليفة على ود حلو.

أشرك الشيخ محمد أبناءه الكبار فى جميع أعماله حيث أسند إلى عبد الله كل ما يتعلق بالشؤون الخارجية للخلاوى مثل زيارة الخلاوى الأخرى ولقاء الوفود والقيام بالاتصالات إما بالكتابة أو بالمشافهة مع زعماء العشائر والطرق الأخرى ومع ممثلى الحكومة كذلك ، كما إنه كان يقوم بفض النزاعات والخلافات التى تنشأ من آن لآخر بين الحيران «فى الخلاوى»، وأما يعقوب فقد أسندت إليه كل شؤون الخلوة الداخلية مثل التدريس وإدارة الخلاوى والمساجد.

توفى الشيخ محمد ودفن بأبى ركة بعد زمن وجيز من وصوله إلى دار جمع ، وكان يعقوب وعبد الله هما أكبر أبناء الشيخ محمد ، فقد كان من الطبيعي أن يخلفاه على زعامة السجادة السمانية وأن يقوموا بتنفيذ رغبة جدهما فى الذهاب إلى الحجاز.

غير أن حادثة فى هذا الوقت أدت إلى تغيير مجرى حياة الخليفة عبد الله وعشيرته تماماً - ونذكر بأن أسلاف الخليفة عبد الله كانوا شيوخاً للطريقة السمانية وقد عملوا على نشرها فى دارفور - وذلك أن الشيخ محمد كان قد تلقى قبل وفاته فى أبى ركة خطاباً من أحد شيوخ الطريقة السمانية فى دار جمع وطلب منه الإذن له بزيارته فى أبى ركة ، إلا إذا كان

الشيخ محمد يفضل أن يشرفه بزيارته له في الجزيرة أيا وينزل ضيفاً عليه ، غير أن الموت حال دون قيام الشيخ محمد بالرد على طلب محمد أحمد والذي كان مشهوداً له بالورع والزهد في أنحاء الجزيرة . وفي ذات يوم قال يعقوب لأخيه عبد الله :

- من الأفضل أن تذهب لرؤية هذا الشيخ وأن تعرف ما يريد.

بدأ عبد الله رحلته سائلاً عن محمد أحمد وعن مكان وجوده ، ثم علم أنه ذهب هو وتلاميذه لبناء قبة على قبر شيخه القرشي ود الزين^(١١) بمدينة المسلمية ، وحينما وصل عبد الله إلى هناك ورأى المهدي أعشى عليه مرتين ، وعندما عاد إلى وعيه ، حيا محمد أحمد باسم المهدي ، فدهش محمد أحمد وربما ظن أول الأمر أن بالرجل مساً من الجنون ، غير أن عبد الله بادره بقوله:

إنك المهدي المنتظر وسأكون أنا وزيرك ، فقد أطلعتني والدي قبل وفاته على علامات المهدي الذي ننتظره جميعاً وهذه العلامات تنطبق عليك.

أدخل محمد أحمد عبد الله في زمرة مريديه ثم أصبح هذا الأخير فيما بعد صاحبه ، وكاتم سره. تبع عبد الله محمد أحمد منذ ذلك اللقاء ولم يفارقه لحظة واحدة واشترك في كل المعارك التي خاضها المهدي. وفي أيا^(١٢) بينما كان أنصار المهدي مسلحين بالعصى والحراب والخناجر يصدون عنه الجنود المسلحين بالبنادق، كان عبد الله يقف الى جانبه ، وطيلة المعركة كان يتخذ من جسده ستاراً يقيه به، ويحرك سيفه يميناً ويساراً مبدعاً عنه الأعداء.

كان عبد الله منذ مطلع صباه ملماً بكل فنون القتال سواءً باليد أو السيف أو القوس أو الحربة وعرف بين أهله محارباً لا يشق له غبار وصياداً ماهراً . وأثناء المعارك كان عبد الله يصد الهجمات عن المهدي بجسده. وعندما أصيب المهدي بطلق نارى في كتفه في إحدى المعارك ، قام عبد الله في الحال بتغطية الجرح بجلبابه حتى لا يعرف أنصار المهدي خبير إصابته فتتأرجح حماسة القتال فيهم. ثم ضمد جرح المهدي وواصل القتال حتى تم النصر للمهدي وأصحابه في المعركة حيث تفوق الايمان على السلاح، كما قال الله سبحانه وتعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)^(١٣) . قام المهدي بعد ذلك بدفن الشهداء من أصحابه ثم قرر الهجرة الى جبل قدير^(١٤) بهيال النوبة.

كانت عائلة الخليفة عبد الله قد بقيت بأبي ركة حيث ترك زوجته زينب بنت الأرباب والتي كانت قد أنجبت ابنه الثاني يحيى في تلك الأثناء وكان ابنه الأكبر قد رأى النور قبل

مغادرته دار التعايشة بزمان وجيز، أما إخوته وأقاربه ومريده ووالده فقد أقاموا جميعاً في دار جمع، ولما علموا بنياً النصر في أها وأن المهدي في طريقه الى جبل قدير، غادروا جميعاً دار جمع ووصلوا الى جبل أبي وتد في منطقة تقلى حيث بايعوا المهدي وتبعوه،^(١٣) وظلوا مخلصين له حتى الموت، ولم يخامرهم الشك لحظة واحدة في أنه المهدي المنتظر.

بدأ المهدي تنظيم حكومته في قدير فمنح كل واحد من أصحابه الرتبة والمكانة التي كانت للواحد من الصحابة بالنسبة للنبي (ص) فقد أطلق على عبد الله الذي كان أول من آمن به وأحبه حباً صادقاً لقب خليفه الصديق، فقد كان بالنسبة له كأبي بكر الصديق من النبي (ص)، اذ إنه كان أول من آمن بالرسالة المحمدية والإسراء من مكة الى بيت المقدس ثم المعراج الى السموات السبع، لذا فقد لقب بالصديق ذاك اللقب الذي ناداه به الرسول (ص).

ولتعميق روابط المحبة التي تربط بين المهدي والخليفة قام المهدي أثناء حصار الخرطوم بتزويج إحدى بناته واسمها أم كلثوم^(١٤) لعبد الله. غير أن الخليفة لم يمكث معها طويلاً فقد طلقها، ويعزى ذلك الى أنها كانت تلقى أذناً صاغية للشائعات التي كانت تلحق بابن الخليفة شيخ الدين وتقوم بنقلها للخليفة بحسن نية، وقالت له في إحدى المرات :

— إن ابنك شيخ الدين قتل إحدى خادmates، فكيف تترك هذا القاتل حراً دون عقاب؟
نادى الخليفة ابنه ثم قال له:

— لماذا قتلت خادمتك فلانة؟ ماذا فعلت حتى تستحق الموت؟

إلا أن شيخ الدين هتف قائلاً :

— أنا لم أقتلها لقد قمت بجلدها لأنها خرجت الى الفناء لتشاهد الرجال المتوجهين الى العرضة، وأنت منعت ذلك وحين رأيتهما تفعل ذلك قمت بجلدها بسوطي .

وكان شيخ الدين قد استعمل كلمة (كملت) أى (قتلت) التي تعنى في لهجة التعايشة الجلد بالسوط.

فغلى الدم في عروق الخليفة عبد الله على زوجته وطلقها في الحال ثم تزوج بأخرى من بنات المهدي وتدعى مريم^(١٥) غير انه طلقها قبل الدخول عليها. وبناء على نصائح أقاربه وبعض الأشراف المخلصين له قام برد أم كلثوم التي أنجبت له ثلاثة أولاد وبتناً. ولما علمت أم كلثوم بمقتل زوجها في أم ديكرات، أخذت سيفاً وامتنطت صهوة جواد وطلبت أن يدلوها على من قام بقتله وحينما وصلت الى ونجت حاولت أن تضربه غير أن

الجنود أمسكوا بها ، فقال ونجت :
- اتركوها فإن ابنة المهدي وزوجة رجل مثل الخليفة عبد الله لابد أن يكون رد فعلها

هكذا. (١٦)

بعد وفاة محمد شقيق المهدي وقائد الراية البيضاء، وكان قد قتل منذ الهجوم الأول على الأبيض سنة ١٨٨٢م، أسندت القيادة العامة لجيوش المهديّة إلى الخليفة عبد الله. ومنذ ذلك الحين أصبحت الراية البيضاء رمز القيادة، تسير في مقدمة ركبته، ثم أعطاه المهدي فوق ذلك علامة مميزة وهي سن الفيل (ام بابا) التي كان صوتها يعلن للناس وجود الخليفة بينهم. غير أن هذا أوغر صدور أقارب المهدي الذين يلقبون بالأشراف فغاروا من الخليفة عبد الله وحاولوا التأثير على المهدي وإثناؤه عن ميله إلى عبد الله، إذ ساءتهم المكانة التي كان يتمتع بها الخليفة لدى المهدي ، حيث قال شقيقه محمد:
- دع عبد الله وأعط خلافة أبي بكر لأحد أقاربك.
فانتهره المهدي قائلاً :

إن البت في مكانة الخليفة عبد الله أمر لا يد لي فيه ، إنه شأن إلهي .
وعند وفاة محمد عند أسوار الأبيض، حضر المهدي ليصلي على جنازته وجنازة أولئك الذين استشهدوا معه، فرأى أرواحهم وهي تصعد ما عدا روح محمد التي أثبت أن تفارق جسده، فدعا المهدي عبد الله وطلب منه ترديد عبارة (إني أعفو عنك) فسأله عبد الله:
لماذا؟

فكرر المهدي أمره قائلاً :

قل إني أعفو عنك

فقرأ الخليفة عبد الله الفاتحة وقال:

(إني أعفو عنك يا محمد عبد الله) .

وفي الحال صعدت الروح إلى بارئها. (١٧)

بعد سقوط الأبيض نشب خلاف حاد بين أحد شيوخ السمانية بكردخان ويدعى الشيخ محمد المنا اسماعيل (١٨) والخليفة عبد الله. وكانت تربط شيخ المنا علاقة نسب وصدقة قديمة بالمهدي. ومن هذا المنطلق فقد طالب بلقب أبي بكر الصديق ومكانته حتى إن بعض أتباعه أطلقوا عليه لقب (أبي التول) تيمناً بلقب أبي بكر الذي كانت ابنته السيدة عائشة هي الوحيدة التي تزوجها النبي (ص) قبل سن البلوغ، فقام أقرباء الخليفة عبد الله بالتحرش بأقرباء

شيخ المنا ، ثم نشب شجار بين الطرفين فأصيب أحد أبناء الشيخ المنا بجروح ، فقام شيخ المنا بتقديم شكوى إلى المهدي ووبخ الخليفة عبد الله أمام الجميع وقد حدث قبل هذا ، وفي أثناء حصار الأبيض أن قامت جماعة شيخ المنا بنهب المنازل التي تركها أصحابها وانضموا لمعسكر المهدي. فأنب الخليفة عبد الله شيخ المنا ومنع أصحابه من النهب ومن الاحتفاظ بالفنائم وبعد سقوط المدينة قامت هذه الجماعة نفسها بالاستيلاء على الفنائم قبل توزيعها فوبخهم الخليفة توبيخاً شديداً وأجبرهم على ردها ، فثار الشيخ المنا على الخليفة عبد الله وأهانته إهانة بالغة.

ونسبة لتأزم الوضع ، خاصة بعد الوقائع التي ذكرناها اتخذ المهدي قراراً واضحاً حيث أعلن أمام الجميع:

(إن الخليفة عبد الله هو مني وأنا منه ، وقد أشار اليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فأتدبروا معه كتأديبكم معي. وسلموا له ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي وصدقوه في قوله ولا تنتقدوه في فعله ، فجميع ما يفعله بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم أو يأذن مني لا مجرد اجتهد منه ، ولا هو عن هوى بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره صلى الله عليه وسلم والقضاء بإشارته فإن فعله بكم وحكمه فيكم بحسب ذلك ، اعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه بقتل نفس منكم أو سلب أموالكم ، فلا تعترضوا عليه فقد حكم عليكم بذلك ليظهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم ، وتقبلوا إلى ربكم. ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسى فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ويخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأنه الخليفة الصديق الذي قال الله في حقه : (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا).

فمن كان منكم مؤمناً بالله واليوم الآخر ومصدقاً بمهديتي فليسلم للخليفة عبد الله ظاهراً وباطناً . وإذا رأيتم منه أمراً مخالفاً في الظاهر فاحملوه على التفويض بعلم الله والتأويل الحسن واعتبروا يا أولى الأبصار بقصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام حكاهما الله في كتابه العزيز كحكم داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام لتسلموا من الشكوك والأوهام ، إن الخليفة هو قائد المسلمين وخليفته النائب في جميع أمور الدين وإياكم والوسوسة في حقه وظن السوء وعدم الامتثال اليه في قوله والمشاجرة له أو لأحكامه والخلاف والحسد).^(١١)

بهذه الكلمات أوضح المهدي بجلالة المكانة التي يتمتع بها الخليفة عبد الله في المهدية ، إذ إنه لا لأحد أن يخرج على سلطة الخليفة عبد الله خوفاً من خسران الدنيا ولعنة الآخرة ، وقد حكمت هذه الأقوال كل حياة الخليفة وأبانت أفعاله.

وفى شيكان كان الخليفة^(١٠) بوصفه القائد العام لجيوش المهدي يرسم لكل مكانه ويوجه الهجوم الذى كان يقوده كل من عبد الرحمن النجوى وحمدان أبو عنجة .
أما فى الرهد فقد كان بجانب المهدي يقف على تنظيم الجيوش المعدة للزحف للخرطوم. وبعد أن تباع الوفود المهدي كان الخليفة ينهض باستقبالها أيضاً . كما كان يقوم بضم الأسرى الى الجيش أو الى خدمة الرايات فى الأعمال الحسابة والكتابة، بالإضافة الى أن جل اهتمامه وعنايته كان موجهاً الى المسائل الإدارية المتشابكة التى يزيد من تعقيدها وجود جيش فى حالة حرب وفى صحبته أسر المقاتلين وعبيدهم وخدمهم. فقد كان للخليفة حضور دائم فى كل المشاكل والنزاعات حيث يستمع الى كل فرد ويعطى كل ذى حق حقه. كان جم النشاط، دائب الحركة. لا يتنوق طعاماً للراحة وقد كان لديه حصان مسرج خارج خيمته على الدوام. كان الخليفة آنذاك بادرى النحول، غير أن نسباً من اللحم بدأ يظهر على جسمه النحيل فيما بعد ولعل ذلك يعزى الى حياة الاستقرار التى عاشها عقب توليه الحكم. وقلة حركته بسبب المرض.

كان طويلاً متماسك الجسم، متناسق الأعضاء يعرج قليلاً فى مشيته وذلك من جراء سقوطه من على ظهر جواده فى مرة من المرات ، ولم تؤد آثار الجدرى الذى أصابه فى طفولته والذي ترك آثاراً واضحة على وجهه لطمس وسامته، فقد كان أفنى الأنف، عالى الجبهة ضيقها، ذا سحنة سمراء نحاسية، له شارب ولحية دائرية، قليلة الشعر، شديد السواد كان خفيف شعر الرأس وقد عجلت حوادث الدهر وصروفه بزحف الشيب على رأسه ولحيته قبل الأوان.

كان حلو المعشر، دمث الأخلاق. غير أنه كان شديد القسوة على نفسه وعلى من يحبهم طالما كان ذلك فى صالحهم، كانت أقواله وأفعاله تنبعث من إيمانه العميق وإخلاصه الشديد، ولعل هذا عجل بنهايته، إذ إن الإيمان سلاح ذو حدين فهو يلهم ويؤدى الى صنع المعجزات غير أنه يمكن أن يحمى صاحبه ويمنعه من سماع النصيحة ومن الاستجابة لصوت العقل.

صحب الخليفة عبد الله المهدي فى زحفه نحو الخرطوم حيث عسكر الجند فى أبى سعد غربى الخرطوم وجنوبى أم درمان ، فقامت جيوش الراية الزرقاء وخاصة جنود أبى عنجة بمحاصرة قلعة أم درمان وكان الخليفة عبد الله يقوم بالطواف عليها صباحاً ومساءً ويحث الرجال على القتال فى سبيل الله ونيل الشهادة فى الآخرة.

وقف الخليفة بعد سقوط الخرطوم على تنفيذ أوامر المهدي الخاصة بسلامة المواطنين ومعاينة كل من تسول له نفسه خرق هذه الأوامر عقاباً شديداً حيث أقام الخليفة لفترة قصيرة في قصر المحاكم العام غير أنه سرعان ما تركه بعد اختيار المهدي لأم درمان حيث بنى داره بالقرب من دار المهدي.

وحينما مرض المهدي في بداية رمضان من عام ١٣٠٢ هـ الموافق يونيو ١٨٨٥م، أناب عنه الخليفة في إمامة الناس للصلاة وذلك يعني بوضوح إختياره إياه خليفة له. وفي الليلة السابقة لموته رأى المهدي النبي (ص) في المنام وأنبأه بقرب موته وسأله عن اختاره خليفة له، فأخبره المهدي بأنه اختار عبد الله خليفة له، وفي صباح اليوم التالي أخبر المهدي الحضور بأمر هذه الحضرة ثم نطق بالشهادة وأسلم الروح إلى بارئها. (٢١)

ولما أصبح الخليفة إماماً للدولة المهدية في أمور الدين والدنيا جاء الذين يؤمنون بأن الدعوة المهدية حق وأن الخليفة عبد الله هو خليفة المهدي وأدوا له البيعة، أما الباقون وعلى رأسهم أقارب المهدي فقد تأمروا عليه وحاولوا قتله، غير أن الخليفة أحبط مؤامرتهم. ولكي لا يؤخذ على حين غرة بدأ الخليفة ضرب خصومه دون رحمة.

ولما كان الخليفة شديد الإيمان بأقوال المهدي، فقد كانت الثورة على حكمه تعنى بالنسبة له الخروج عن طاعة الله، وعصيان أوامره، وعدم طاعته كان يعني الخروج على أوامر النبي (ص) ونواهي، وبما أنه كان خليفة المهدي الذي كان هو بدوره خليفة رسول الله (ص) والذي يمثل لكل مؤمن صادق انبلاج النور الرباني فإن ذلك النور قد انتقل إلى المهدي الذي نقله بدوره إلى خليفته عبد الله، كما إن المهدي أعلن على أصحابه أن عبد الله سيكون مهدياً آخر الزمان عند أهل الباطن. (٢٢)

هذا وقد كان على الخليفة عبد الله أن يشن الحرب طيلة فترة خلافته على مدعى النبوة الذين دأبوا على الظهور في الشرق والغرب، فلهذا ملأهم نبي الله عيسى وتارة باسم المهدي المنتظر. وكان بعضهم يطمع في خلافة عثمان بن عفان التي كان المهدي قد منحها لمحمد السنوسي ولكنه رفضها.

تمكن الخليفة من القضاء على تلك الدعاوى الباطلة وانتزاعها من نفوس أولئك الذين اتبعوها، ولكنها أسالت كثيراً من الدماء وكانت تهدداً لدعوة المهدية نفسها في وقت من الأوقات. ومن ناحية أخرى فقد كان على الخليفة عبد الله أن يواجه عدداً من المعارضين السياسيين داخل الدولة المهدية وخارجها.

كان الأشراف يعتبرون الخليفة عبد الله مختلساً للسلطة وقد أظهروا عداوتهم له من قبل، إبان حياة المهدي، إذ كانوا يرون أن خلافة المهدي من حقهم وكان يجب أن تزول للخليفة محمد شريف ابن عم المهدي وصهره، وفي حالة عدم حدوث ذلك فإلى أحد أقارب المهدي وليس إلى غريب وفد من الغرب.

إلا أنهم بايعوا الخليفة عبد الله على مضض، فقد كانت تنقصهم القوة إذ كانت جيوش الراية الحمراء، راية الخليفة شريف، مفرقة في أنحاء البلاد بقيادة أقارب المهدي. بينما كانت الراية الزرقاء بكاملها في أم درمان باستثناء قوات أبي عنجة التي أرسلها المهدي في اليوم التالي لفتح الخرطوم إلى جبال النوبة.

كان الخليفة علي ودخلو أول من أقر للخليفة عبد الله بالخلافة وبايعه، إلا أن الأشراف حاولوا زرع الشقاق في صفوف الأنصار وسعوا إلى الحصول على الإقرار لهم بالخلافة، وبعد دفن المهدي جاء الأمير يعقوب الذي لم يكن يثق في الأشراف، وأحاط نواحي المسجد بقواته، وكان لديه عدد كاف من الرجال والسلاح، فقد كانت عاداته في المعارك أن يأخذ السلاح والرجال والخيول غنيمة بينما كان الأشراف يحشون عن المال والنساء. وفي داخل المسجد تلقى الخليفة البيعة من الجميع:

(بايعنا الله ورسوله ومهديه وبايعنا الخليفة عبد الله على السمع والطاعة والانقياد لحكمه والرضى بإرادة الله).

وبعد أداء البيعة خاطب الخليفة عبد الله جموع الأنصار بهذه الكلمات:
(أيها الناس اعلموا أن ضعيفكم عندي قوى حتى آخذ الحق من القوى، وقويكم عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق للضعيف).^(٢٣)

وعلى الرغم من كل محاولات الصلح التي بذلها الخليفة عبد الله لم يسلم الأشراف أسلحتهم وكانوا ما فتئوا يتآمرون على الخليفة، فقرروا أن يقتلوه في عام ١٨٨٦م وينصبوا الخليفة شريف بدلاً عنه. غير أن مؤامراتهم كانت قد كشفت، وأرسل الخليفة يونس الدكيم عاملاً على الجزيرة حتى يمنع تمركزهم فيها فقد كان الأشراف ينوون التمركز في الجزيرة حيث تساندتهم معظم القبائل، منتظرين محمد خالد زقل^(٢٤) بجيشه من الغرب ثم يسيرون بعدها إلى أم درمان ليقتلوا الخليفة عبد الله ويجتمعوا حول الخليفة شريف ليحكموا معه. لكن الخليفة أفشل مخططهم عندما أمر حمدان أبو عنجة - في جبال النوبة - باعتراض طريق محمد خالد، وأمر في نفس الوقت بأن توضع أسلحة كلا الأميرين وذخائرتهم ورايتيهما لدى

الأمير يعقوب لتحفظ في بيت الأمانة وتخرج منه للعرضة والجهاد .

قام الخليفة علي بتسليم أسلحته وراياته وجيوشه في الحال لذا اضطر الخليفة شريف أن يفعل مثله . ثم أصدر الخليفة أمراً آخر بأن يسلم كل جهادية الرايتين الخضراء والحمراء للأمير يعقوب ليضمهم للراية الزرقاء التي أصبحت بذلك جيش المهدي الأوحده ، وأصبحت الرايات الأخرى تقسيمات رمزية موجودة باسمها فقط ، ومضى الوقت من غير أن يسلم الأشراف أسلحتهم مخالفين بذلك أمر الخليفة عبد الله واستمرت الشكاوى ضدهم تترى من الأقاليم فكان علي الخليفة أن يلجأ إلى الشدة .

كان الأشراف قد تمكنوا من سُم الخليفة ، فأصبح في حالة يرثى لها حيث رقد علي عنقريه (سريره) مغمض العينين وكان ينردد في صدره نفس خافت ، ولقد ظن الجميع أنه ميت لا محالة .

وجلس بالقرب منه صهره الخليفة علي وأخوه الأمير يعقوب اللذان أخذوا يراقبان نفسه الأخير ، وعندما ظنا أنه توفي ، أخذ الخليفة علي سيف الخليفة عبد الله الذي كان معلقاً بجوار رأسه ووضع على ركبتيه مشيراً بذلك إلى أن الخلافة ستؤول إليه ، فمد الأمير يعقوب يده في الحال وأخذ السيف ووضع على ركبتيه هو ، ناظراً بتحد إلى الخليفة علي ، وفجأة فتح الخليفة عبد الله عينيه ومد يده وأخذ السيف من الأمير يعقوب قائلاً له :

لن يخلفني أحد لأن المهديّة ستموت بموتي .

ثم قام الخليفة من رقدته تلك بعد أن زالت عنه آثار السم بفضل الله تعالى وهكذا وضع أن أجله لم يحن بعد . (١٦٠) .

وفي عام ١٨٩١م بدأوا يدبرون مؤامرة أخرى لاغتيال الخليفة عبد الله وتنصيب محمد شريف بدلاً منه ، إلا أن الجملي بدوي ود العريف ، وكان أحد المتآمرين ، كان قد اعترف بكل شيء للخليفة الذي اتخذ استعداداته في الحال ، فأحاط يعقوب ديار الأشراف بجيشه بيد أن الخليفة منعهم من إطلاق النار ومن الهجوم ، ولكن الأشراف حاولوا الخروج واصطدموا بجيش الأمير يعقوب وأطلقوا النار ، فمرت رصاصة بالقرب من الخليفة ، حيث كان يعقد مجلسه ، واصطدمت بالحائط وسقطت بجانبه ، وعندما ضج الحاضرون ، أمرهم الخليفة بهدوء حيث كان يطلب إلى أعضاء مجلسه إيجاد وسيلة للمصالحة وإعادة الخليفة شريف وأتباعه إلى الطاعة ، فندب الخليفة على نفسه للوساطة ، وبعرض المحاولات انتهى الطرفان إلى الاتفاق

وجاء الأشراف للخليفة عبد الله يبايعونه ويطلبون عفوه، فعفا الخليفة عنهم. وبعد يومين تم اعتقال قادة الأشراف وقدموا للمحاكمة، وصدرت أحكام بالإعدام.

حزّ هذا الأمر في نفس الخليفة شريف فامتنع عن المسجد مما جرّ عليه تهمة الكفر وهي جريمة عقوبتها الإعدام، فقبض عليه وأحضر بين يدي الخليفة عبد الله الذي قدم محضراً قاسياً لكل ما دبره الأشراف ضده منذ وفاة المهدي، ثم ذكر أقوال المهدي ومحاولات الصلح التي قام بها بنفسه، ثم ختم حديثه قائلاً:

— لقد جاءني المهدي عليه السلام في حضرة نبوية وأمرني بضرب هؤلاء الذين ضربتهم. فقلت له:

— إن أهل الظاهر سينكرون على ذلك سيقولون إنه قد عفا عنهم ثم جاء واعتقلهم. فقال المهدي عليه السلام:

(الحق معك وأهل الباطن معك فاضربهم لأنهم تمردوا عليك فقد عصوا الله وقد حذرتهم من قبل وقلت لهم إن كل من يعصيك فقد عصاني ويكون بهذا قد عصى الله). فأجهش الخليفة شريف بالبكاء وطلب العفو فقال له الخليفة إذا كانت توبتك صادقة فإني أعفو عنك في ما يتعلق بي، ولكن يجب معاقبتك لأنك تغيبت عن صلاة الجمعة، لقد أغواك إبليس وأعماك بوسواسه، ولنتطهرك من هذا الإثم فسأحكم عليك بالسجن لبعض الوقت، فعد نفسك وتب عن ذنبك على الله يغفر لك كما عفوت عنك. (٢٦)

قبل الخليفة شريف بالحكم الذي أصدرته المحكمة وبقي في السجن حتى عام ١٨٩٦م. وعندما غزا الإنجليز البلاد طلب من الخليفة أن يسمح له ولأقاربه بالجهاد معه في وجه العدو ، وبقي مع الخليفة حتى كررى ثم فارقه عندما توجه إلى كردفان. حيث ذهب هو وأهله إلى الجزيرة واستسلموا هناك. (٢٧)

وكان على الخليفة كذلك أن يواجه تمرد القبائل التي كانت قد أذعنت للمهدي وبعته بدرجات متفاوتة من الإخلاص ثم ثارت بعد ذلك علناً في وجه الخليفة، ففي الشرق كانت قبيلتا الشكرية والهبانية وفي الغرب كانت الرزيقات والكبايش. لذا فقد وجد الخليفة نفسه في حالة تشبه حالة سيدنا أبي بكر الصديق بعد وفاة الرسول (ص) عندما ووجه برودة القبائل العربية وتمردوا على سلطته. وقد أدى ذلك إلى تضافر عدة عوامل من بينها الغزوات القبلية وحب الزعامة والتنافس الشخصي، وهنا أيضاً سعى الخليفة للمصالحة كما فعل مع الأشراف، فدعاهم للحضور إليه لتجديد البيعة والاستعداد للجهاد. وأمام رفضهم هاجمهم الخليفة وقتل

زعماهم وأخذ أموالهم غنيمة ثم عين زعماء منهم موالين له. كما احتفظ ببعضهم وهائن في أم درمان لكي يضمن ولاء عشائريهم.

ومن ناحية أخرى كان تنافس الأمراء داخل الجيش هاجساً كبيراً للخليفة، حيث كان عليه أن يتعامل بحنكة مع أولئك الرجال الذين كانوا قواداً نادريين ومحاربين لا يشق لهم غبار، إلا أنهم بشر يغيرون بشدة من بعضهم البعض ويتطلعون للقيادة، فكان الخليفة يدعوهم لتحكيم صوت العقل ويسعى لزرع مشاعر الأخوة فيما بينهم والطاعة لأوامره متسلحاً بتعاليم الدين وبأقوال المهدي، فكان يعظهم باستمرار ويسهر على حفظ النظام في الدولة المهدية. وعلاوة على كل المؤامرات والمصاعب الداخلية، كان هناك خطر الاعتداءات الخارجية، فمنذ مجيئه كان الإنجليز يهددون البلاد من الشمال بينما كان الأحباش يهددون منها من الشرق، كما كان الغرب نفسه في حالة غليان، فقد ثار الثورة مرة أخرى ثم تبعهم الفور بعد وقت قليل. ولمواجهة هذه التهديدات اضطر الخليفة للاحتفاظ بثلاثة جيوش على هذه الحدود بصفة دائمة، فأخضع الغرب. كما تمكن الأنصار بقيادة أبطال مثل أبي عنجة والزاكي طمل من الانتصار على الأحباش وإقامة نقاط على طول الحدود.

وبعد صد الإنجليز في الشمال قام الخليفة بإعداد حملة مصر التي انتهت بهزيمة الأنصار في توشكي عام ١٨٨٩م وتوقف الجهاد لبعض الوقت، فقد كان على الخليفة حماية أراضيهِ التي أصبحت مهددة بمختلف الأعداء من كل جانب. فالإنجليز والمصريون في الشمال وعلى ساحل البحر الأحمر، والابطاليون على الحدود الحبشية، وفي الجنوب البلجيكويون والفرنسيون. وفي الغرب ثار الفور مرة أخرى مساندة لزعمائهم وهاجموا الأنصار، وكان على الخليفة أن يكون موجوداً في كل أجزاء البلاد في وقت واحد ليسد جوانب القصور ويشجع الأنصار ويدعوهم للجهاد في سبيل الله ويحثهم على الالتزام بأداء واجباتهم الدينية. وقد شهد الأمراء بحدوث كرامات أثناء الحملة على الحبشة فقد سمعوا، وهم في قلب المعركة، صوت أم بايا مما يعنى أن الخليفة كان بينهم^(٧٨)، وهذا يذكرنا بما حدث في حملة سارية بن زعيم على الفرس عام ٦٤٣، فعندما تشتت شمل المسلمين وأخذوا يولون الأدبار، سمع الجميع صوت عمر بن الخطاب يتردد قائلاً بوضوح (يا سارية الجبل .. يا سارية الجبل) فقاد سارية جيوشه نحو الجبل وبقي هنالك، وقاد المعركة في اليوم التالي فكان النصر حليفه، وعلم الناس فيما بعد أن اللحظة التي سمعوا فيها صوت عمر بن الخطاب، كان رضى الله عنه

يخطب خطبة الجمعة على جموع المسلمين في مسجد المدينة، وقال إنه رأى سارية في رؤية وأن قواته قد كانت قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة، وبقي عمر صامتاً بعض الوقت ثم هتف فجأة:

يا سارية الجبل .. يا سارية الجبل، ثم واصل خطبته.^(٢٩)

وفي الليلة السابقة لمعركة عطبرة أمر الخليفة الجميع بعد صلاة العشاء أن يستعدوا للعرضة في صباح اليوم التالي ولم يستثن سوى المرضى. وفي الوقت الذي كان الزاكي طمل يحقق فيه انتصاره الحاسم على الأحباش بالقرب من نهر عطبرة وصوت أم بابا يرن في الآذان، كان الخليفة عبد الله يستعرض جيشه، وقد كان ذلك يوم الثلاثاء. ولم يحدث قبل هذا اليوم ولا بعده، أن تم عرض الجيش في يوم غير يوم الجمعة.

وقد حدثت كرامة أخرى تم تجسيدها بلوحة فنية^(٣٠) فيما بعد، ففي بداية حملة الحبشة كان جيش أبي عنجة يعاني من الجوع ومن العطش بصفة خاصة، فرآهم الخليفة في منامه وهم في هذه الحالة، وفي صباح اليوم التالي ارتدى ملابس الحرب وحمل أسلحته وركب جواده وأمر ملازميه بأن يتبعوه ثم اتجه إلى النيل ودخله بتصميم. وأبوجوك^(٣١) يقود الحصان حتى وسط النهر ومن خلفه الخليفة، جاء الملازمون والأنصار حتى تقدموا داخل النهر، فأخذ الخليفة جرعة ماء ثم استل سيفه ورفع في الهواء ثم صاح:

- امربوا.

فتسرب الجميع، وكرر أمره ثلاث مرات ثم التفت إلى جموع الأنصار قائلاً لهم:

إن إخوانكم يعانون من الجوع والعطش على حدود الحبشة فنسأل الله أن يسقيهم

ويروهم.

وبعد ذلك توجه الخليفة إلى منزله وتفرقت الجموع. وقد أكد أبو عنجة هذا الأمر في أحد خطباته إذ قال إن السحب قد تجمعت في ذلك اليوم فوق الجيش ونزل المطر غزيراً حتى ارتوى الرجال والبهاائم وامتلات الآبار وانحنت الأشجار بفعل المطر فأكل الجنود من ثمارها التي كانت بعيدة عن متناول أيديهم، وعندما اكتفى المحاربون استقامت الأشجار، فنزل أبو عنجة من حصانه وفعل كل الجنود مثله وفي الحال صلى ركعتين شكرياً لله على هذه المعجزة.^(٣٢) إن مثل هذه الكرامات يمكن أن تفهم في إطار ذلك المجتمع الذي كان يتفياً ظلال الإيمان ويتسرب به، وقد كان الخليفة رجلاً مؤمناً بطبيعة الحال مثله في ذلك مثل الغالبية العظمى للأنصار، فإنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنهم إذا انهزموا فإن الله سينزل

جنداً من السماء لتحارب معهم كما فعل مع نبيه (ص) وصحابته. وكانوا كلهم مقتنعين بأن عزرائيل يحمل راية من نور ويسير أمامهم. لقد كان الإيمان يحركهم نحو النصر ويجعلهم صمّاً وعمياناً عن كل ما يؤخرهم عن لقاء الله. وفي كرري، كما في أم ديبكرات بعد ذلك ، أظهر الأنصار شجاعة تجل عن الوصف ولم يتراجعوا أبداً حتى استشهدوا في مواقعهم. لقد كانت كرري مثلاً لتلك الشجاعة التي تفوق شجاعة البشر العاديين. وذلك لأنهم كانوا يحاربون لوجهه جلّ وعلا حتى آخر رمق في حياتهم ليفوزوا بالشهادة أو النصر.

وقد قتل يعقوب كما قتل كل المدافعين عن الراية الزرقاء، لكنها كانت قد ظلت ترفرف لبعض الوقت فوق جبل من الجثث. وامتدت يد فاسقة إليها ولما فشلت في الإمساك يدها حملت الراية لانتراعها منه، قامت هذه اليد النجسة بتسديد عدة طعنات لحامل الراية ثم الاستيلاء عليها.

وأمام ذلك الوضع المأساوي المتأزم قرر الخليفة أن يلقي ربه، فألقى نظرة على السهل الكبير الذي كانت تنتشر فيه الجبب البيضاء مختلطة بألوان أزياء العدو كأنها كفن كبير تكسوه الدماء. وبالقرب منه كان الخليفة على ممدداً على عنقريب (سرير خشبي) بسبب جرح في ساقه، فأخذ الخليفة فروته ليفترشها على الأرض ثم جمعها فجأة وانتصب واقفاً، وصهل جواده (عصار) الذي كان قد أعطاه له المهدي، فداعبه الخليفة، وخوفاً من أن يقع في يد أحد الكفار قام باطلاق طلقة على رأسه، ثم ركب جملة ونادى امرأه بإشارة من يده وجعل ينتظر الموت، ثم صعد إلى أعلى مكان في الجبل ليكون هدفاً واضحاً للأعداء الذين صوبوا نيرانهم عليه من كل اتجاه. بقي الخليفة واقفاً في مكانه إلى أن اندفع نحوه عثمان دقنة وقبض لحام الجمل صارخاً:

- إن هذه ليست نهاية كل شيء.

وتحدث كثيراً عن المرات المتعددة التي أيد فيها جنوده، وعاد هو وحيداً مشحناً بالمجراح ليبدأ جهاده من جديد. وبالتأكيد يتمكن الخليفة من جمع جيش آخر يواصل به الجهاد ضد العدو الغازي.

وواصل قائلاً:

- يوماً ما سيموت كلانا ونحن نحارب على سهوات جيادنا، ولكن ما الفائدة من الجلوس على فروتك وانتظار العدو والموت برصاصة جالساً هكذا. فلنعد إلى أم درمان وصرخ الجميع:

- إلى أم درمان يا خليفة المهدي كي نموت تحت قبة المهدي. (٣٣).

وهكذا ترك الخليفة قيادة الأنصار الذين ألهمهم الله هذا الرأي، وسار الخليفة حتى دخل قبة المهدي حيث بقى أصحابه بالخارج وهم جالسون على فرواتهم بينما الوقت يمضي والعدو في أعقابهم. هذا وقد تردد العدو في دخول المدينة، وبينما الأنصار ينتظرون والخليفة يتأمل، إذا بيد تربت على كتفه، وبصوت يقول:

- يا خليفة المهدي لا تنظن أن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً فلا تبك أخاك يعقوب ولا إبراهيم الخليل (٣٤) ولا بشارة (٣٥) ولا أياً من الذين سقطوا من أجل كلمة الله، إنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ينعمون بما وعدهم الله، قم يا خليفة المهدي فوقت الشهادة لم يحن بعد، وإن رسول الله يأمرك على لسانی أن تقوم معي أنت وأهلك إلى الغرب لتعاود القتال هناك، وسيلحق بك أحمد فضيل، والخنيم موسى ينتظرك ومعه جنوده، أسلحتهم كثيرة العدد لم يمسهما أحد، ارحل ومعه الذين يستطيعون الرحيل. (٣٦)

رفع الخليفة عينيه فكان المتحدث هو ود البدوي (٣٧). فنهض الخليفة وصلى للمرة الأخيرة، وخرج مبتسماً للمرة الأولى منذ أن علم بمقتل أخيه يعقوب، فقد كان وجهه مشرقاً بنور داخلي وبصوته الذي عاد قوياً كما كان، ثم دعا الأنصار للهجرة قبعه الجميع، ما عدا الذين منعتهم جراحهم، أو الذين كان إيمانهم ضعيفاً وكانوا يأملون في الاستفادة من الأحداث. وفي الطريق لحق به ما تبقى من جيشه الذي كان قد انسحب إلى الشمال الغربي. ثم اتجه إلى كردفان حيث بقى هناك عاماً آخر حتى جاء أجله في أم ديكبرات يوم ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م، وفي الليلة السابقة للمعركة ألقى على أفراد جيشه خطبته الأخيرة ثم أذن لمن يري منهم النكوص عن بيعته وسمح له بمفارقه قبل المعركة لمن أراد ذلك، فلم يتحرك أحد منهم، وظلوا جميعهم بجانبه ليقاتلوا حتى الموت.

وكان الخليفة يقاتل كما اعتاد مستعماً سيفه، وفي تلك الأثناء أصابته طلقة إلا أنه استمر في القتال بجرحه حتى رأى أن كل شيء قد انتهى فترجل عن حصانه واقرش فروته متجهاً نحو القبلة، ونادى أهله وأمرهم بأن يفعلوا مثله وينظروا الموت، فاصطفوا كلهم أمراء ومحاربين للصلاة خلف الخليفة، فعلى يمينه كان رفيق حياته وعونه في كل الملمات الذي لم يفارقه أبداً، الخليفة على ودخلو، وعلى يساره ابن عمته العزيزة عنده أحمد فضيل، الذي رباه الخليفة وأحبه كحبه أبناءه تماماً، واتجهوا جميعاً نحو القبلة وعندها أمطرهم العدو وابلاً من الرصاص فاستشهدوا جميعهم في أم ديكبرات التي أصبحت مقبرة ضخمة للأنصار.

فقبض على الذين بقوا أحياء وكانوا جميعهم من الجرحى. ومع ذلك كان العدو يبحث عن جثة الخليفة عبد الله ليتأكد من موته.

فقام أحد الأمراء السابقين وكان قد انضم للأعداء ويسمى عمر الحمري إلى المكان الذى استشهد فيه الخليفة، وكان المكان مليئاً بالجثث، فأشار عمر الى إحداها قائلاً:
هذه هى جثة الخليفة.

ولدهشة الجميع رفع الخليفة عبد الله رأسه وكأنه قد استيقظ للتو من نومه قائلاً:

- لماذا بعث هذه الدنيا بدينك يا عمر.

وسقط رأسه وصمت الحاضرون وقد جمدهم المفاجأة، وتمتم أحدهم بقوله:

- ياويلنا لقد حاربنا وقتلنا أولياء الله.

- وصاح عمر:

- ولكنه ميت

فرفع الخليفة رأسه مرة أخرى وقال:

- ان ما قاله صحيح. أما أنت يا عمر فقد بعث بدينك هذه الدنيا، لقد خرجت من الملة

منذ هذه الساعة.

ثم سقط ^(٣٨) رأسه مرة أخرى. بعد ذلك فُحصت جثة الخليفة وتأكدوا من أنه قد مات

بالفعل. وقد أصابته طلقتان، واحدة فى جبهته والأخرى فى قلبه.

(١) روى لى هذه القصة السيد محمد داؤود حفيد الخليفة عبد الله. ونجد نفس القصة مع بعض الاختلافات مدونة فى مخطوطة الشيخ عبد الوهاب أحمد بن الحاج الأمين الأنصارى: سيف المجاهدين الحاسم فى أحناف الملحدون، الجزء الثانى ص ٣٤ والمصفحات التالية، دار الوثائق المركزية. الخرطوم المهدية ٦٩/٨.

(٢) تورشين تعنى الثور القوى الضيف وليس الثور الضيف كما قال شقير فى كتاب تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٧٦، ص ٥٠٢.

وعند زيارتى لأبى ركية فى ديسمبر ١٩٨٦ قال لى عساكر المكي حفيد الشيخ عساكر أبى كلام: إن المقصود لى تورشين وإنما تورشيل فقد كان الشيخ محمد يقول (أنا تورشيل) أى أننى أنا الذى أحمل الصعاب والأعباء جميعها. راجع أيضاً كتاب زلفو، كبرى، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٧٨ ص ٩٠.

(٣) أسس محمد بن عبد الكريم السمانى (١٧١٨ - ١٧٧٥) الطريقة السمانية وهى فرع من الطريقة الخلوتية، وقد أدخلها الشيخ أحمد الطيب بن البشر إلى السودان فى نهاية القرن الثامن عشر.

(٤) الجنيد هو جد التعايشة، وكان له ابنان هما عطية وحيداد، وعطية هو جد البقارة بكل فروصهم: الحمر والرزقات وبنى هلبة والمسيرية والحوازمة، أما حيداد فهو جد التعايشة والهباتية والأحامدة وأولاد أحمد سليم وسلامات والنجمية.

(٥) التعيش بن حسب الله بن حيداد بن الجنيد واسمه أحمد ولقبه تميش، ويحكى أنه عندما توفى حسب الله والد أحمد كان جده من جهة أمه يقول له كلما بكى (اسكت تكبر تميش) فسمى بأحمد تميش وأصبح اسم القبيلة يرجع لهذا اللقب.

(٦) كان لملئى الكرار ابنان هما محمد والد كل من عبد الله وبحقوب، وأحمد أبناؤه هم محمود وإسماعيل وإبراهيم الخليل وعبد الرحمن وحامد الذى لم يكن له ابن وأما عثمان فقد كان أبناؤه هم عبد الدائم وعمر والد بحقوب، وأدم وهو والد عثمان آدم أمير عمالات الغرب.

(٧) أم نعيم هى ابنة الحسنة، وأم سره هم فرع من أولاد جبار، وبقية بطون أولاد جبار هم سرحان وحيدان وحسبة وجيد ومرزوق. وقد تزوج أسلاف الخليفة منذ وصولهم إلى دار التعايشة بينات أولاد جبار فتزوج على الكرار بآمنة سميل بنت عمرو وليد الأمين العريقى الريح فرغ من أولاد سرحان، وهى أم محمد تورشين.

(٨) يحبر تاريخ ميلاد الخليفة عبد الله المتفق عليه بصفة عامة هو عام ١٨٤٦م، أما إذا حسبنا على أن عمر المهدى كان ثمانية وثلاثين عاماً فى عام ١٨٨١م، وأن الخليفة عبد الله يكبره بستين أدركنا أن التاريخ الصحيح هو ١٢٥٨/١٨٤١ هـ.

(٩) توفى الشيخ القرشى ود الزين فى عام ١٨٧٨م، وقد أعطانا هذا التاريخ إبراهيم الرياض الذى أخذه من الشيخ عبد المحمود نور الدائم، وقد كان الأخير شاهداً عياناً، وقد قال إن الشيخ القرشى توفى وعمره ستة وثلاثون عاماً، وكان ذلك فى ظهر الجمعة ٢٥ رجب ١٢٩٥ هـ / ٢٥ يوليو ١٨٧٨، أزهـر، ٣٠٩، وانظر هـولت، الدولة المهدية فى السودان ١٨٨١ - ١٨٩٨، الطبعة الثانية، أكسفورد، ١٩٧٠م، ص ٥٠، حاشية رقم (١).

(١٠) أول معركة للمهدية مع قوات الحكومة فى عام ١٨٨١م.

(١١) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(١٢) يقع جبل فدير، جنوب جبال النوبة، وكان هو مكان هجرة المهدي.

(١٣) نجد في كتاب جهاد في سبيل الله (أوراق أو دفتر على المهدي)، ص ١٨، أن المهدي قد أقام معسكره في جبل أبي وتد، وأن خمسة عشر شخصاً قد بايعوه، وأن من بينهم الأمير يعقوب وأخوته ومساعد قيدوم وأحمد علي وحامد علي.

(١٤) لم نكتوهم بنت المهدي وابنة عمال فاطمة بنت الحاج، كان لديها ثلاثة أبناء وبنت واحدة وأبناؤها هم : محمد الطاهر ومحمد الهادي ومحمد السيد وطاهرة.

(١٥) مريم بنت الإمام المهدي وفاطمة بنت حسين الحجازي.

(١٦) عرفت هذه الرواية من حفيد عدنان محمد السيد خلال زيارتي لأُم ديكرات في ديسمبر ١٩٨٦م.

(١٧) هذه رواية محمد دارود.

(١٨) الشيخ المنا اسماعيل من قبيلة المسداب، وهي إحدى بطون الجمع الصغيرة التي عاشت في كردفان منذ منتصف القرن الثامن عشر، وكان الشيخ المنا مشهوراً بورعه وعلمه، كما كان زميلاً لمحمد أحمد في خلوة الشيخ محمد شريف نور الدائم، ونجح المهدي منذ ظهور دعوته. كما تزوج المهدي ابنته حواء الجلانة وكانت راجته هي الراهبة الصفراء، ولذلك كان يطمع في مكانة عثمان بن عفان التي وعد بها المهدي السنوسي، وقد قُتل لأجل عصيانه أوامر المهدي مع بعض أفراد عائلته في عام ١٨٨٣م - بولتون (المنا اسماعيل، قتيهاً وأمرأاً SNR, XVII, II الصفحات ٢٢٩ - ٢٤١).

(١٩) منشورات المهدي، أبوسليم، بيروت ١٩٧٩، ص ٦٦ - ٦٩.

(٢٠) معركة انتصر فيها الأنصار على قوات الحكومة بقيادة حاكم عام السودان آنذاك علاء الدين باشا صدقي والكولونيل الإنجليزي وليم هكس، وذلك في يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٣م.

(٢١) يوسف ميخائيل، تاريخ حياتي، المهدي، ٤/٩/٨، ص ٦٨ - ٦٩.

(٢٢) خطاب المهدي إلى فخر الدين بتاريخ ٤ شوال ١٣٠١ ٢٨ يوليو ١٨٨٤ منشورات المهدي، ذكر سابقاً، ص ٧٨ - ٧٩.

(٢٣) جهاد، ص ١١١.

(٢٤) محمد خالد زقل، هو ابن عم المهدي، وكان قد عينه الأخير عاملاً على دارفور ثم تأمر مع الخليفة شريف ضد الخليفة عبد الله، فقبض عليه أبو عنجة في عام ١٨٨٦م، وأرسله إلى أم درمان حيث بقي في السجن لبعض الوقت ثم عينه الخليفة عاملاً على دنقلا في عام ١٨٩٠م وعزله بعد ذلك في عام ١٨٩١م، ثم أرسله إلى الرجاف لمشاركته في مؤامرة الأشراف، وبقي هناك حتى عام ١٨٩٧م، ثم ذهب بعد ذلك إلى دارفور، وبقي مع السلطان علي دينار الذي اتهمه بالتآمر عليه، وقُتل في عام ١٩٠٣م.

(٢٥) هذه رواية عبد الرحمن الطيب بن الأمير يعقوب حفيد كل من الأمير يعقوب والخليفة عبد الله.

(٢٦) جهاد، ص ١٤٧ - ١٧٥.

(٢٧) انسحب الخليفة شريف وأبناء المهدي بشري والفاضل إلى الشكابة بالجزيرة وهناك اتهموا بالتآمر ضد الإنجليز وأعدموا في يوم ٢٧ أغسطس ١٨٩٩م.

(٢٨) عبد القادر الكردفاني (الطراز المنقوش بشرى قتل يوحنا ملك الحبش) MS 139, DURHAM مطبعة
نقدية، محمد إبراهيم أبوسليم، ومحمد سعيد القنابل: الحرب الحبشية السودانية ١٨٨٥-١٨٨٨، دار جامعة
الخرطوم للنشر، ١٩٧٢، ص ١٣٨.

(٢٩) تاريخ الطبري، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩م المجلد الخامس، ص ١٧٩.

(٣٠) توجد هذه اللوحة التي رسمها أحد الإنجليز في بيت الخليفة، وقد قام عدد من الفنانين السودانيين برسم نسخ
منها، وقد ظهر فيها الخليفة عبد الله على ظهر فرسه، وكان ابنه سليمان هو الذي مثل دور والده (لمعل
اللوحة) ويذهب البعض أنها تمثل الخليفة عبد الله عندما سمع بسقوط كسلا في أيدي الإيطاليين، وقد دخل
في النهر واستل سيفه ثم ردد (الله أكبر ثلاث مرات). وقد أكد لنا صحة الرواية الأولى مهدي الطيب الأمير
يعقوب حفيد كلي من الخليفة والأمير يعقوب.

(٣١) (أوجو كني) سائل فرس الخليفة عبد الله قتل في أم ديكبرات.

(٣٢) خطاب حمدان أبي عجة الي الخليفة عبد الله، بلا تاريخ ولا ختم ومن المحتمل أن يكون قد كتب في
جمادى الأولى ١٣٠٥هـ / يناير ١٨٨٨م وهو كتاب لم يكتمل، يصف فيه أبو عجة المعجزة التي شهدا
في أرض الحبشة المهدية ٢٦/٨.

(٣٣) زلقو، كبرى، ص ٥٢٦.

(٣٤) إبراهيم خليل أحمد ابن عم الخليفة وأعو الأمير محمود، كان قائد الجهادية في كارا، توفي في كبرى
١٨٩٨.

(٣٥) مخطوط، جامعة الخرطوم، ص ٧٦، الجزء ٢، كما روى الحادثة نفسها موسى هرديب، الذي كان شاهداً
عنان للمهدي الطيب بن الأمير يعقوب. الختيم موسى، أحد أمراء التعاضة، كان من وكلاء عثمان آدم ثم
محمود أحمد من بعده، وقاد عدة حملات ضد الفور وضد بحر الغزال. وعهد اليه محمود بحماية الأبيض
عندما غادر القاشر ولحق بالخليفة بعد كبرى، ثم جرح في أم ديكبرات وأسر وأرسل الي الرشيد حيث بقي
هنالك لعدة سنوات ثم أُرْجِعَ إلى السودان وتوفي قريباً من نيالا عام ١٩١٤م.

(٣٦) رواية سليمان محمد سليمان، سوار من البطولة، الخرطوم، بلا تاريخ، ص ٩٢ - ٩٤.

(٣٧) الشيخ محمد ود البدي عالم العلوم الدين والفقه، وهو من الدناقلة، ولد في الأبيض وتخرج في الأزهر
وصاحب المهدي منذ الأبيض، وقد عينه المهدي قاضياً علي بربر ثم استقر في أم درمان وأصبح رئيساً
لمجلس القضاء ورجال الدين في أثناء الحكم الثنائي، توفي عام ١٩١١م ومازال الناس يزورون ضريحه.

(٣٨) رواية عبد الرحمن أبي حسين الجباري، كتاب تاريخ المهدي.

الخليفة على ود حلو

على ودحلو هو ابن شيخ قبيلة دغيم^(١)، إحدى قبائل البقارة. تولى أخوه الأكبر موسى زعامة القبيلة عقب وفاة والده، أما على فقد كان مهتماً بالعلم، وقد اشتهر بطريقته المتميزة في تلاوة القرآن، وبورعه الشديد، وكان تلميذاً للشيخ مضوى^(٢) الذي زاع صيته في منطقة العيلفون لتبحره في علوم القرآن.

طلب الشيخ محمد أحمد، الذي زاعت شهرته بين قبائل النيل الأبيض، من الشيخ مضوى أن يرسل له أحد حيرانه (تلاميذه) كي يُدرّس في خلوته، فأرسل له الشيخ مضوى على ود حلو الذي كان في الثلاثين من عمره^(٣). وعند وصوله إلى أبأ، أسس خلوته التي لا تزال آثارها قائمة حتى الآن، ومنذ ذلك الحين لم يفارق على ودحلو الشيخ محمد أحمد، وكان من أوائل المؤمنين به عندما أعلن أنه المهدي المنتظر، كما التفت قبيلة دغيم وحليفاتها قبيلة كنانة^(٤) حول المهدي وآزرتاه، وقام علي بمرافقة المهدي في رحلته الأولى إلى الأبيض.

كان معظم أصحاب المهدي في معركة أبا يتمون لقبيلتي دغيم وكنانة، وقد قاموا جميعاً بمرافقته إلى قدير، وهناك لحقت به إحدى نساء كنانة^(٥) وأخبرته بأن قوات الحكومة برئاسة رائد بك تستعد للهجوم عليه.

منح المهدي علماً منزلة الخليفة عمر بن الخطاب، ولقب بخليفة الفاروق، وكان يحمل الراية الخضراء التي كانت تنضوي تحت لوائها قبائل دغيم وكنانة بالإضافة إلى قبائل البقارة الصغرى على الحدود بين الجزيرة وكردفان.

أما أخوه موسى الذي كان وكيلاً له، فقد اشتهر بشدة البأس في القتال وإجادة فنون الحرب، وكان المهدي قد أرسله لمساندة ود النجومى وأبى عنجة اللذين كانا يحاربان في جبال النوبة.

وعندما جاء الإنجليز لنجدة غردون ووصلوا إلى جكدول، أوكل إليه المهدي أمر قيادة الجيش الذي تصدى لهم في أبى طليح، وهناك انطلق موسى ودحلو وسط صفوف الأعداء حتى نصب رايته في وسط جيوشهم، وبدأت مواجهة حامية الوطيس، سقط أثناءها موسى ود

حلوا شهيداً، وواصل رفاقه القتال حتى استشهدوا جميعاً، وكانت تلك هي أول هزيمة
للأنصار، وقد تركت أثراً سيئاً في نفس المهدي إلا أنه منع الناس من البكاء على شهداء أبي
طليح. ولكي يخدع الأعداء المحاصرين، أمر بإطلاق المدفع الوحيد الذي يملكه كعلامة
للتصريح، وقد كان ذلك نصراً بالفعل لأن الشهادة كانت هي أمنيتهم، فقد استشهد الأمير
موسى ورجال رايته وكانوا كلهم من دغيم وكنانة تقريباً، إلا أنهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند
ربهم يرزقون.

ينتهي نسب الخليفة على ود حلوا إلى آل البيت، وقد كان ورعاً وحكيماً في أقواله وأفعاله،
كما كان ميالاً إلى التصوف، زاهداً في الدنيا وشؤونها، بيد أنه كان يوليها الاهتمام الذي
تستحقه عند الضرورة، فكان يتخذ القرارات اللازمة ويدلي برأيه عندما يطلب منه. وقد كان
كبقية أهله مقاتلاً شجاعاً لا يشق له غبار، واشتهر كذلك بالكرم وبالسعي لإصلاح ذات البين،
وقد كان قوى الإيمان بالمهدي، فكان من أوائل الذين آمنوا بدعوته، ولتقوية أواصر الصداقة
بينهما زوجه المهدي بابته نور الشام، فأنجب منها الطيب والصادق وعائشة. وقد ربطته
بالخليفة عبد الله كذلك صداقة قوية نشأت فور وصوله إلى الجزيرة أبا، كما إنه تزوج أخت
الخليفة حليلة، فأنجبت له موسى ويعقوب، وكانت هي زوجته الأولى.

وقد كان حريصاً طوال حياته، على ملازمة الخليفة عبد الله وخاصة في صراعه مع
الأشراف إذ اتخذ موقفاً مؤيداً لصدوره، فأخذ الأشراف عليه ذلك، لكنه كان يرى أن الخليفة
عبد الله هو الخليفة المعين من قبل المهدي، ولذا كان من أوائل من المبايعين له، ولم يتراجع
قط عن بيعته.

وعندما اندلعت فتنة الأشراف انتدبه الخليفة للوساطة بين الفريقين، فقاد وفداً من كبار
رجال المهديّة ومن مختلف القبائل للتفاوض مع الخليفة شريف وأنصاره المجتمعين داخل
قبة المهدي^(٦).

طلب الخليفة على ود حلوا من الأشراف توضيح سبب تمردهم ومعاداتهم للخليفة عبد
الله، فرد أحمد محمد الخير^(٧) وأحمد سليمان^(٨) بقولهما:

- إن السبب المهم هو أن خليفة المهدي قد أخذ منا سلاحنا وراياتنا وجيشنا فقال لهما

الخليفة علي:

- إنكم أنتم السبب في ذلك، فإن خليفة المهدي استحسن وضع السلاح والرايات في
صعيد واحد في بيت الأمانة لحفظها فقط، وأن نأخذها عندما نريد حملها للعرضة أو الهجرة

أو غير ذلك ولما كان يوم الجمعة جفت وأخذت رايي وأسلمحتي حسب الاتفاق السابق ولم تفعلوا أنتم ذلك. وقد تخلف الخليفة شريف ولم يحضر كما حضرت بل أرسل محمد أحمد شيخ إدريس^(٩) فرفض خليفة المهدي إلا أن يحضر الخليفة شريف لأخذها، ولم تأخذوا في تلك الجمعة ولا في التي تلتها، وهذا يعني أنكم تركتموها باختياركم. وليس هذا هو السبب الذي دعاكم لمخالفة الناس ولمحاربة خليفة المهدي بل بلغنا أنكم قلتم إن المهدي جاء لإحياء الشريعة والعمل بالسنة والكتاب ولكن خليفة المهدي ترك حكم الشريعة وجعلها سلطة فردية وصار يحكم «بالإشارة» بمقتضى ما يوحى رأيه، فلذلك أنتم برزتم لمعارضته. فقال له:

— حقيقة نحن قلنا ذلك لكن الشيء الذي أغضبنا واضطربنا لهذا الموقف هو سلب الرايات والسلاح وتفريق جيوشنا. فأجابهم الخليفة على بقوله:

— أما قولكم إن خليفة المهدي جعلها ملكاً.. الخ فنحن وأنتم باعنا على السمع والطاعة والإنقياد لحكمه وإن هذه مازالت على رقابنا ونحن مدانون له بها وملزمون بالطاعة له. أما أخذ الرايات والسلاح وتوزيع الجيش فأنتم سببه فقد اتفقتم معه على خزنها في مكان واحد ثم تخليتكم عن الاتفاق باختياركم.

واحتد النقاش بين الخليفة على ود حلو والأشراف حتى هدد الأشراف بتحويله إلى قتال، وهنا ملك الخليفة نفسه والتفت إلى الخليفة شريف الذي كان صامتاً تجاه هذه الألفاظ قائلاً له:

— مارأيك في هذا الكلام الذي صدر عن جماعتك. فرد الخليفة شريف بقوله:

— حقيقة إننا وضعنا الرايات والسلاح في بيت الأمانة باختيارنا وعلى حسب اتفاقنا مع خليفة المهدي وتخلينا عنه باختيارنا لأسباب رأيناها، وتطورت المسألة حتى فات القوات ولافائدة من ذكرها الآن. وحيث إنكم جئتم بقصد عمل الصلح بيننا وحقن دماء المسلمين، فأنا لا أمانع في ذلك بل أوافقكم على شرط ألا تمسوا الناس الذين قاموا معي في هذا الأمر بسوء ولا تؤاخذوهم فيما مضى.

— فرد عليه الخليفة على الذي خوله الخليفة عبد الله كل السلطات:

— أعدكم بأن لا يحاسب أحد على ما حدث وأن الخليفة عبد الله قد عفا عما سلف.

بعد ذلك أبرم الطرفان معاهدة سلام. وإظهاراً لحسن النوايا وتدعيماً لهذه المعاهدة قام الطرفان بزيارة قبة المهدي حيث جدوا البيعة وهكذا غلب السلام^(١٠).

بعد أيام من هذه الاتفاقية قام الخليفة عبد الله باعتقال ومحاكمة قادة المؤامرة وكان الخليفة على، رئيس المحكمة، على يقين بأن الخليفة عبد الله فعل ذلك إجابة لأمر المهدي في حضرة أمره فيها بمحاكمة العصيان، وذلك بعد أن حدد له أسماءهم^(١١).

وترأس الخليفة على كذلك المحكمة التي جلست لمحاكمة الخليفة شريف، ووجه التهم إليه، وقد كان بهديء من غضب الخليفة شريف وألفاظه الجارحة قائلاً له:

- يا خليفة المهدي اصبر، أنت رجل عاقل وخير لك أن تمثل أمر خليفة المهدي الذي حكم به القضاة وأهل الشورى. لقد عفا عنك خليفة المهدي بصدق ولا يحمل عليك أى حقد فى تمردك عليه، ولكنك أخطأت فى حق الله بتخليك عن صلاة الجمعة لقد أنجحتك توبتك من عقوبة الإعدام إلا أنك تستحق العقاب، فاقبله بلا احتجاج، لأنه سيكون تطهيراً لك، أرجو أن تسلمنى سيفك. فاستجاب له الخليفة شريف مسلماً سيفه له لأنه كان يحبه حباً شديداً^(١٢).

بعد هذا عاد الخليفة إلى داره ككياً حزناً من الصراعات والانشقاقات بين أصحاب المهدي، ولكي ينسى هذا اعتاد أن يشغل نفسه بتلاوة القرآن ودراسته، فكانت نفسه تهذا شيئاً فشيئاً.

كانت للخليفة على خلوة مجاورة لمنزله بجوار المسجد، وكان مسلولاً عنها أحد الفقهاء، وكان الخليفة على يحرص دائماً على تفقد أحوال الطلاب ومستوياتهم. وكان بين طلاب هذه الخلوة أبناء المهدي والخليفة والأمير يعقوب. وكان شيخ الدين بن الخليفة يأتي إلى الخلوة برفقة عبيده حيث يحمل أحدهم دواته وآخر لوحه وثالث يحمل فروته فيجلس بجوار زملائه إلا أن الشيخ لم يكن يعيره اهتماماً، واستمر الحال هكذا حتى جاء يوم سأل فيه الخليفة عبد الله ابنه عما حفظ، فرد شيخ الدين بأن الشيخ لا يتحدث إليه ولا يوجهه لما يجب أن يحفظه ولا يوبخه بل يتجاهله تجاهلاً تاماً، فاندesh الخليفة عبد الله لما سمعه من ابنه وقرر التأكد من ذلك بنفسه. فذهب فى أحد الأيام إلى الخلوة وسأل الشيخ عن سبب تجاهله لابنه فرد الشيخ قائلاً:

- يا خليفة المهدي إن ابنك عثمان لا يأتي إلى الخلوة طالباً بل يأتي سيداً حيث يحمل له عبيده كل حاجاته ويعاملنا كأنما نحن عبيد وهو سيد وهذا يخالف روح الإسلام وروح الخلوة وهنا التفت الخليفة إلى ابنه وقال له:

- لقد سمعت ما قاله شيخك، عليك منذ هذه اللحظة أن تجلس مع زملائك هؤلاء.

ثم أشار إلى العيد قائلاً:

- أما هؤلاء، فعليهم أن يواصلوا معك حفظ القرآن على يدي هذا الشيخ، وعلى كل منكم أن يحمل حاحه بنفسه فكلكم عبيد الله ولافضل لأحد على آخر إلا بالتقوى^(١٣).

ولقد كانت تصرفات شيخ الدين غير اللائقة تجاه الخليفة على وأعضاء مجلس الخليفة تضايق الخليفة على إلا أنه كان يخفى ذلك حتى لا يغضب الخليفة عبد الله، وفي المقابل كان التوقير والاحترام الذي يجده من الأمير يعقوب ينسبه تصرفات شيخ الدين.

لم يحدث أن تخلف الخليفة عن عرضة الجمعة. وكان دائماً هو ورجال رايته متأهبين للدفاع عن الخليفة عبد الله. وفي شهر رمضان كان يؤم المصلين في صلاة التراويح وكذلك في صلاة الجمعة في حالة غياب الخليفة عبد الله.

كان الخليفة على على رأس الراية الخضراء في معركة كررى، وأصيب خلالها في فخذه الأيمن فسال دمه غزيراً ولكنه قال للذين حاولوا إبعاده من ساحة القتال: إنني أريد أن أرى الخليفة عبد الله.

وعندما التفت لمكان الخليفة عبد الله أصابته رصاصة أخرى في نفس الساق المصابة فسقط وحمل إلى جانب الخليفة.

وكانت إصابته خطيرة مما اضطره لأن يحمل طوال الطريق إلى غرب السودان، وقد لاحظ قلة رجال دغيم المصاحبين للخليفة فسألهم:

(أين فلان وفلان؟) فقالوا:

- انهم تركوا الجيش بعد كررى برفقة أخيك الإمام وعادوا إلى ديارهم، ونحن أيضاً ننوي أن نفعل ذلك.

هنا هب الخليفة على واقفاً رغم إصابته واستل سيفه صائحاً:

«هل فقدتم إيمانكم يا رجال دغيم. اذهبوا في الحال وجددوا البيعة لخليفة المهدي حتى الموت، لقد ضاعت بيعتكم السابقة بسبب ضعفكم». ونادى أحد التعاشية من أولاد عباس ويدعى المهدي شرف الدين وقال له:

- الحق بأخي الإمام واحضره حياً أو ميتاً هو ومن معه، وإذا رفض الرجوع، اقطع رأسه واحضره لي.

انطلق المهدي شرف الدين برفقة مجموعة من الرجال وعند وصوله لموقع الإمام ود حلو، قال له إن أخاه يطلب منه اللحاق فوراً لخليفة المهدي، فرفض الإمام. وهنا دارت

معركة بين مؤيديه ورجال المهدي شرف الدين الذي أطلق رصاصة أصابت ساق الإمام فسقط على الأرض وعندما اقترب المهدي منه، قال له:

- تب ورافقني إلى حيث خليفة المهدي فرد الإمام:

- بعد كل ما فعلته لا أستطيع النظر في وجه خليفة المهدي فافعل بي ما أمرك به أخى.

فاستل المهدي شرف الدين سكينه وقطع رأس الإمام وحمله إلى الخليفة علي كما أمر. وقال رجال من دغيم:

علينا أن نرجع إلى ديارنا، إن الخليفة عبد الله سيذهب إلى دار التعاضد، فماذا سنفعل نحن هناك؟.

فقال لهم الخليفة:

- إن كل من يهجر الخليفة فإنما يهجر الله، وهنا ندم الجميع على ما قالوه وتبعوا الخليفة^(١٤).

عندما اقتربوا من أم ديكرات اقترب الخليفة علي من الخليفة عبد الله وقال له:

«أتذكر يا خليفة المهدي، ما قاله المهدي عليه السلام عند مرورنا بهذا المكان ونحن قادمون من الأبيض، فقد قال لنا نحن الاثنين إننا سنرقد في هذا المكان»^(١٥)

فقرر الخليفة أن تكون المعركة في سهل أم ديكرات في منطقة جديدة.

وعندما رأى الخليفة أنه قد خسر المعركة، قام بفرش فروته على الأرض وجلس عليها وجاء الخليفة علي، الذي لم يتوقف لحظة عن القتال، وجلس على يمينه وعندما رأى الأعداء يقتربون أراد مواصلة القتال واستل سيفه محاولاً القيام إلا أن الخليفة عبد الله وضع يده على ساعد الخليفة علي قائلاً له:

اجلس مكانك، وكانت هذه آخر كلماته^(١٦).

وجد جثمان الخليفة علي ممزقاً بالطلقات بجوار جثمان الخليفة عبد الله، وكما قال المهدي فقد استراحا بأمر ديكرات حيث دفنا ولا تزال آثار فروتيهما موجودة حتى الآن في نفس الموقع الذي استشهدا فيه، لقد رحلوا عن الدنيا إلا أن أرواحهم الطاهرة لا تزال حية بجوار ربهم تتطلع للقيام من أجل القتال مجدداً في سبيل الله.

- (١) دغيم إحدى قبائل البقارة التي تمش على النيل الأبيض بالقرب من الجزيرة أبا، انضموا للمهدى منذ عام ١٨٨١م وحاربوا معه في معركة أبي طليح عام ١٨٨٥م تحت قيادة زعيمهم موسى ود حلو، واشتهر رجال دغيم بالفروسية.
- (٢) الشيخ مضوى عبد الرحمن من أصل محسى، انضم للمهدية من أجل المنفعة الشخصية بعد سقوط الأبيض عام ١٨٨٣م وبعد هزيمة المهدية عنته سلطات الحكومة المصرية الإنجليزية قاضياً باستقلاً، وتوفى بالخرطوم عام ١٨٩٩م ودفن في الصلفون.
- (٣) أملى بهذه المعلومات شيخ كبير خلال زيارتي للجزيرة أبا وطلب منى عدم ذكر اسمه.
- (٤) إحدى قبائل البقارة وتمش على ضفتي النيل الأزرق شمال سنجة وسنار، وفي شرق كردفان، ويرجعون نسبهم إلى قبيلة كنانة العربية، وقد آمنوا بالمهدى منذ بداية دعوته عام ١٨٨١م وانضموا مع قبيلة دغيم تحت الراية الخضراء بقيادة الخليفة علي ود حلو.
- (٥) رابعة الكنانية.
- (٦) جهاد، ص ١٦٧، والصفحات التالية.
- (٧) أحمد محمد الخير بن محمد الخير عبد الله الخوجلي من أمراء الراية الحمراء.
- (٨) أحمد سليمان من أوائل المؤمنين بالمهدى وقد عينه المهدى في تقدير أمناً لبيت المال، بصفة غير رسمية، ثم عين بصفة رسمية بعد سقوط الأبيض عام ١٨٨٣م، وكان هناك عداة خفية بينه وبين الخليفة عبد الله، فعزله الخليفة بعد وفاة المهدى، ونقل فيه حكم الإعدام بفشودة بعد مؤامرة الأشراف إذ كان أحد المشاركين فيها.
- (٩) محمد أحمد شيخ ادريس - أمير من أشراف الشرق.
- (١٠) المصدر السابق.
- (١١) نعم شعير، ص ١١٦٧ - ١١٦٨.
- (١٢) جهاد ص ١٧٢ - ١٧٥.
- (١٣) رواها لي مهدي الطيب بن الأمير يعقوب.
- (١٤) المصدر السابق.
- (١٥) روى لي هذه الأقوال الشيخ عباس أحمد عمر في الجزيرة أبا في ديسمبر ١٩٨٦م، وقد سمعها هو من شاهد حي.
- (١٦) زلفو، ذكر سابقاً، ص ٥٦٩.

الأمير يعقوب

فى كررى، عند سفح جبل سرغام،^(١) نحو الشمال قليلاً يوجد قبران متباعدان، يحيط كلاً منهما سياج من الحديد، أولهما قبر الأمير يعقوب، أخو الخليفة عبد الله والآخر قبر صهره، محمد بن المهدي، يرقد كلاهما فى المكان الذى قاتل فيه لنصرة دعوة الله، ونال فيه شرف الشهادة.

تحيط القدسية بسهل كررى، فهناك يرقد جند الله الذين روت دماؤهم الطاهرة ترى تلك الأرض، واختلطت عظامهم بلترات ترابها، عند جبل سرغام الذى شهد آخر معارك الراية الزرقاء بقيادة الأمير يعقوب فى ٥ سبتمبر ١٨٩٨م، ويتكون هذا الجبل من تلين أو ثلاثة، أكبرهما مستطيل الشكل ويميل للانخفاض، أما الآخران فيتكونان من كتل متفرقة، وحول الجبل تبثثر الحجارة والصخور على الرمال التى تغطي الأفق. وتتأثر هنا وهناك بعض الشجيرات الهزيلات، وربما يسمع فى المساء عند هذا السهل صليل السيوف وقعقة الأتة وصوت تصادم الدروع وطلقات البنادق، مصحوبة بصيحات التكبير التى تدوى فى أرجاء المكان.

فلتوقف هنيهة، ولتأمل. إن هؤلاء الذين يرقدون تحت أقدامنا قد ماتوا لكى تبقى كلمة الله، ولكى يقفوا سداً فى وجه العدو الذى أراد دخول مدينتهم، إنهم أموات بيد أن أرواحهم حية. وهم مستعدون للقيام من أجل القتال مرة أخرى، متمثلين بقول الرسول (ﷺ) : ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وما له على الأرض من شىء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة^(٢).

والأمير يعقوب هو أكبر أبناء الشيخ محمد بن على الكرار، ووالدته معروفة بنت المهدي من أولاد أم سره من الجبارات، إحدى بطون التعايشة، وقد ولد فى حوالى ١٨٤٠م، وتولى أمر إدارة خلوة والده منذ فجر شبابه.

عندما وصل الشيخ محمد إلى دار جمع، التقى بالشيخ عساكر أبى كلام بأمر حجر غرب تندلتى، وطلب منه الشيخ عساكر أن يبقى معهم لكى يعلم أهله القرآن ويُدْرِسَهم تعاليم الإسلام، فقبل الشيخ محمد إلا أنه رفض الإقامة بأمر حجر، وقال للشيخ عساكر:

- دعنى أستقر فى مكان معزول.

فسمح له الشيخ عساكر بالإقامة حيث يريد. تحرك الشيخ محمد يتبعه أهله ومريدوه، إلى الشمال وعندما وصل الى المكان الذى يوجد فيه قبره الآن، توقفت البقرة التى كانت تحمل متاعه ورفضت التقدم، فقال الشيخ محمد:

- سأقيم خلوتى فى هذا المكان، وهنا سيكون قبرى^(٣).

وبعد وفاته تولى ابنه يعقوب مسؤولية الأسرة والحيران، وبقي فى أبى ركة، وبالتدريج أصبح المكان المهجور الذى اختاره والده، معموراً بالسكان، فقد تجمع الناس حول الخلوة والبئر التى كانت فى الماضى غيباً رفيعاً من الماء لا يملأ سوى إبريق. ومن هنا جاء اسم «بئر الأباريق»، وقد أصبح مأوها غزيراً دافقاً، وكان الناس قبلها يذهبون إلى جديد أولى أم حجر ليردوا.

واستمرت الحياة هكذا، وفى أحد الأيام خرجت القرية كلها لملاقاة رجلين يتقدمان مجموعة من الرجال ويرتدون ثياباً مرقعة، وبعد قليل تبينوا أن أحد الرجلين هو عبد الله بن الشيخ محمد، وعقب الجو برائحة زكية، ثم جلس الرجلان تحت إحدى الأشجار وبدأ الحديث رفيق عبد الله الذى كان ممسكاً فى يده براية سوداء تخفق تحت أشعة الشمس. وعند رؤية هذا المشهد، صرخت زهرة بنت أرباب، زوجة الخليفة عبد الله قائلة:

- «لقد صدق أبى محمد. جاءنا المهدي المنتظر. لقد أخبرنى أبى محمد، فى أحد الأيام قبل وفاته بقليل، أنه سيأتينا رجل أسود البشرة، له علامتان على خديه ويحمل راية سوداء تشع بالنور، سيكون معه ابنى عبد الله وستخرجون جميعاً لاستقباله وتذبحون له الذبائح. سيجلس تحت شجرة وتفوح منه رائحة عطرة، ذلك الرجل هو المهدي المنتظر».

حمل يعقوب عثمان بن الخليفة عبد الله على كتفيه وتبعه أخوه هارون وبقية حيران الخلوة ووقفوا أمام القادمين، وبقوا لحظات، وقبل أن يتحركوا أعطى المهدي الراية الزرقاء ليعقوب وقال له:

ستشهد تحت هذه الراية^(٤).

صحب يعقوب وهارون المهدي ومرافقيه حتى الأبيض، ونزلوا فى ضيافة السيد المكي، ولما كردفان، الذى استقبلهم بكرم وحفاوة، وتبادل الحديث لساعات طوال مع المهدي ومع أبناء الشيخ محمد وذكر هؤلاء أن جدتهم على الكرار كان تلميذاً لوالده. وشكا السيد المكي من فساد الأخلاق الذى تغشى بين الناس. ومن سوء خلق السادة الذى طال عامة الشعب،

ومن استغلال الحرام. وذكر أن الجميع ينتظرون ظهور المهدي الذي سيملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وفساداً^(٦).

ومنذ عدد من السنين كانت قوافل الحجيج والتجار تأتي من غرب إفريقيا متجهة إلى الشرق، فيتوقفون في كردفان ودارفور، إما للتجارة أو للراحة والاستجمام. وقد كان العلماء القادمون من المغرب يستقرون في القاشير والأبيض لتعليم الناس أمور دينهم. وكان كل القادمين يتحدثون عن رجل من قبائل الفولاني يسمى عثمان دان فوديو^(٧)، اشتهر بالعلم والورع، يذكر لأتباعه أن المهدي سيظهر في الشرق وأن زمانه قد اقترب. فهاجر كثيرون إلى الشرق استعداداً لمناصرة المهدي عند ظهوره والإيمان به.

وعلى شواطئ نهر السنغال ظهر في حوالي عام ١٨٥٠م رجل دعا الناس للجهاد في سبيل الله ضد المارقين من المسلمين والكفار، وكان هذا الرجل عالماً مشهوراً ومقاتلاً جسوراً، اسمه الحاج عمر^(٨)، وقد تبني أفكار الشيخ عثمان دان فوديو وأعلن بدوره أن أوان ظهور المهدي قد اقترب وأن ظهوره سيكون في الشرق. وعقب وفاته في عام ١٨٧٦م، هاجر بعض أتباعه إلى كردفان ودارفور انتظاراً لظهور المهدي. وعندما أعلن محمد أنه المهدي المنتظر، سراً في البداية، ثم جهراً بعد ذلك، آمن به كل غرب السودان وتبعه.

سمع يعقوب بهذه الأنباء وقرر أن يلحق هو أهله بالمهدي، وذهب إلى جبل أبي وتد في مملكة تقلي حيث التقى بالمهدي وبأبيه^(٩). وقد وصل يعقوب إلى قدير بعد أن اختار المهدي خلقاء، فعينه أميراً قائداً للراية الزرقاء.

كان يعقوب أسن من الخليفة عبد الله، وكانت تجمع بين الأخوين عاطفة قوية. وكان عبد الله يستشير يعقوب كثيراً ويعمل بمشورته، حيث اشتهر يعقوب بشدة ذكائه وحدته، وبسعة أفقه وعمق إحساسه حتى إنه لقب «بجرب الرأى»، لأن الناس كانوا يجدون عنده النصح وحل المشاكل التي يواجهونها. كان متوسط الطول، ليس بالسمين ولا بال نحيف، متناسق الأعضاء، ذا بشرة خفيفة السمرة وكان وجهه ودوداً متبسماً يتميز بعينين نفاذتين، وعرنين أقنى وشفتين دقيقتين. وكان كرمه أسطورياً وقلبه طيباً^(١٠).

بذل يعقوب كل جهده للقضاء على العداوات والتنافس بين القبائل، وقد سعى للمصالحة بين قبائل الغرب «أولاد العرب» وقبائل النيل «أولاد البلدة» وحقق في ذلك قدراً من النجاح. كان يعقوب ذا مقدرات عسكرية فائقة كمقدراته على حل كل المشاكل الناتجة من إدارة

الراية الزرقاء. فهو لم يكن يتولى أمر الجند فحسب، بل وشؤون أسرهم، وكان يسهر على حفظ حقوقهم. وكان يعد في كل شهر قائمة مفصلة بمحاربى الراية الزرقاء وأسرهم والأسلحة النارية منها والبيضاء، وأدوات الحرب والذخائر والخيول، وكل ذلك محفوظ فى سجل الراية الزرقاء، فقد كان على كل قائد حملة أن يرسل فى نهاية كل شهر تقريراً مفصلاً عن أعداد جنوده.

وتمكن الأمير يعقوب من إحاطة نفسه بموظفين أكفاء كانوا فى الغالب يعملون مع الإدارة التركية سابقاً، وقد كان يتابع بنفسه دقة إدارة رايته بل دقة إدارة جيش المهدي كله. وقد كان يهتم كذلك بالبريد، وهو الذى تولى أمر تنظيم بيت المال وبيت الأمانة. وقد تولى أخيراً قيادة الراية الزرقاء بدلاً من الخليفة وذلك منذ فتح الأبيض، فقد ظل الخليفة عبد الله قائداً للراية لكن يعقوب كان وكيله وهو الذى كان يسير فى مقدمة الراية فى المعارك وفى العرصة.

وعلى عكس أقارب المهدي الذين يسعون بعد كل معركة للحصول على المال والنساء، كان الأمير يعقوب يأخذ غنيمة من الأسلحة والخيول.

وبصفة عامة كان يعقوب يقود الخيالة، ولذا فعند وفاة المهدي، وخوفاً من حدوث اضطرابات من جانب الأشراف وأنصارهم، فقد طوق بفرسانه المسجد ودار المهدي من كل الجوانب، وعندما تلقى الخليفة عبد الله البيعة من الأنصار، كان يعقوب فى الصف الأول، مترقباً ومستعداً للتدخل عند حدوث أى حركة مريبة، وزيادة فى الحيلة والحذر فقد وضع كل الذين يثق بهم بالقرب من الأشراف وظل ساهراً بنفسه ولم يرجع إلى داره إلا بعد أن تحقق من دخول الخليفة داره^(١٠).

وقد فعل الأمير يعقوب الشيء نفسه عندما قرر الأشراف اغتيال الخليفة عبد الله وإحلال الخليفة شريف محله فى عام ١٨٩١م ولكن المؤامرة كانت قد كشفت وطوق يعقوب حى الأشراف بقواته إحاطة السوار بالمعصم، وأتت كل المنافذ أمام أولئك المجتمعين بقبة المهدي، فلم يتمكنوا من الخروج، إلا أن رجال الأمير يعقوب لم يطلقوا أى طلقة طاعة لأمر الخليفة، وعندما حاول الأشراف إحداث ثغرة يخرجون منها وأطلقوا النار على قوات الأمير يعقوب لم يرد أحد من هؤلاء عليهم.

ويعقوب كالأسد اللئيم يهلوف حول أرجاء المسجد ليتأكد من أن كلاً يحتل موقعه. وأخذ الأشراف يطلقون النار من النوافذ الصغيرة فى أعلى قبة المهدي مما أدى لجرح بعض

جنود يعقوب وقتلهم ، فهذا الأمير يعقوب من نائرة إخوانهم الذين أرادوا الرد عليهم قاتلاً لهم:

- تذرعو بالصبر أيها الإخوان، سنجد الفرصة لقتالهم إن هم خالفوا أوامر خليفة المهدي (١١)

ولوقف المواجهة، فقد ذهب الخليفة على يتبعه كل من أحمد على قاضى الإسلام وأحمد شرفى جد الأشراف الموقر لديهم، لمقابلة الأشراف وتذكيرهم بتوجيهات المهدي، على أن يتدخل الأمير يعقوب فى حالة فشل وساطتهم، فقد كان الخليفة يفضل ألا يلجأ للسلاح قبل استفاد كل الوسائل الدبلوماسية، وقد نجحت هذه الجهود ووافق الأشراف على الاستسلام. كان الأمير يعقوب رجلاً مثقفاً وكان يحب أن يحيط نفسه بعلماء الدين وبالشعراء وكانت داره منتدى حقيقياً، ويرتاد أمسياته الأدبية بانتظام كل محبى الفنون الجميلة حيث يلتقون عدة مرات فى الأسبوع ، وكثيراً ما كانت تناقش فى داره قضايا الدين واللغة فى حرية كاملة، كما كانت تدور بينهم مساجلات شعرية حامية، وينسى الرجال، ليمض الوقت، كل منافساتهم الشخصية والقبلية ويقبلون على رياضة العقول وحوار الأفكار وقد تهذبت لغتهم وسمت أخلاقهم. بيد أن نداء الجهاد كان قد دوى، فقد تعرضت البلاد للغزو ويجب حمايتها، فحمل الأمير يعقوب السلاح مرة أخرى .

اعتاد الأمير يعقوب حتى موته على الحضور الى دار الخليفة عبد الله مساء كل يوم ليناقد معه شؤون الدولة، فقد كان الخليفة يعرض ما يشغله ويطلب مشورة أخيه، ويقدم يعقوب تقريراً عن أعماله اليومية، ويدرسها كلاهما ثم يتخذان القرارات النهائية بعد نقاش مستفيض. وكثيراً ما يأخذ الخليفة برأى أخيه يعقوب، ولكن هذا لايعنى البتة أن يعقوب كان هو الحاكم، فقد كان الخليفة هو الذى يتخذ القرار النهائى وكان رأيه هو النافذ، وإنما يعقوب مستشاره ولم يكن يدير دفة الحكم من وراء الكواليس كما يزعم بعضهم.

وفى المجلس كان يعقوب يضطر غالباً للأخذ برأى شيخ الدين على مضض، فقد كان شيخ الدين يعارض كل ما يأتى من عمه أ و من ابنى عمه ابراهيم الخليل ومحمود أحمد (١٢)، وكان يعقوب يتجنب أن يشير غضب الخليفة عبد الله بمعارضة ابنه بصورة سافرة، وقد كان لهذا الموقف، الذى أملاه على الأمير يعقوب شدة حبه لأخيه، عواقبه الوخيمة.

ومما يوضح لنا أن الخليفة لم يكن يتبع آراء يعقوب بصورة عمياء، وإنما كانت لديه آراؤه الخاصة، أن الأمير يعقوب كان من أنصار الانسحاب للغرب، منذ عام ١٨٩٦م، فقد كان

يرى أن قبائل الغرب ستحمي أرضها ضد الغازي بحماسة ومقدرة أكبر لأنها تعرفها وتعرف دروبها ومسالكها وطبيعتها معرفة جيدة، أما أم درمان فهي بالنسبة لجميع البقارة مكاناً مقدساً لأن الإمام المهدي قد دفن فيها ولكنها تظل غير أرضهم. أما بالنسبة للخليفة فقد كانت هذه المدينة هي عاصمة الدولة المهدية، ولم يكن يخطر له أن يفادها، بل كان يريد أن يحيى مدينة المهدي حتى آخر رجل وآخر حجر من حجارته.

وفي مجلس الخليفة الأخير الذي عقده في كرري كان رأى الأمير يعقوب أن يهاجموا معسكر العدو ليلاً. وقد ساندته في هذا رأى كل من الخليفة شريف وإبراهيم الخليل، إلا أن شيخ الدين اعترض على ذلك محتجاً بأن المهدي كان يهاجم دوماً عند الفجر، وللأسف فقد تبنى الخليفة رأى ابنه، وبدأ الهجوم عند الفجر بنتائج التي نعرفها جميعاً.

واجهت الراية الزرقاء العدو تحت قيادة أميرها، واشتد وطش المعركة وأخذ الموت يحصد الأنصار، وكان الأمير يعقوب ينتظر بفارغ الصبر أن يأذن له الخليفة بالهجوم، وعلى الجناح الأيمن من الجيش كان صهره محمد بن المهدي الذي، صرخ قائلاً:
- إلى متى نتظر. إلى أن يمسكونا بأيديهم.

وانطلق مهاجماً صفوف العدو ومعه كل الذين كانوا من حوله وقاتلوا حتى سقطت خيولهم، ثم واصلوا القتال حتى نالوا الشهادة، وهذه هي اللحظة التي استشهد فيها محمد المهدي ومعه عثمان الدكيم^(١٣) ومحمد ودبشارة.

ورفع الجنود جثة ابن المهدي وحملوها نحو جبل سرغام، فأوقفهم الأمير يعقوب وسألهم:

- من هذا الشهيد؟

- محمد المهدي.

نزل الأمير يعقوب من فرسه ووقف أمام جثة صهره وقرأ فاتحة، ووقف يتأمل للحظات ثم أشار للرجال بمواصلة سيره وقفز على ظهر فرسه، ثم ألقى نظرة على أرض المعركة حوله، وأرسل بصهره إلى المكان الذي أقام فيه أخوه معسكره، وشاهد جسداً ممدداً على فراش الخليفة ومجموعة من الأنصار قد حملوه على أكتافهم واتجهوا به نحو أم درمان. فسأل الأمير: الشايلنو دا منو؟ فأجابوه بأن هذا هو إبراهيم الخليل وقد أمر الخليفة بدفنه في داره، وعندما سمع هذا الخير سألت دموعه وصمت لحظة. ثم التفت إلى قواته وصاح رافعاً صوته عالياً:

(الأنصار يا أسفاه؟ اتحنا يانا فوق خيلنا والعيال الصغار ناس ابراهيم الخليل روحوا للمقام الدائم.. واحنا يانا فوق خيلنا وماسكين راياتنا.. تبلدية وقعت فوق الكفار.. تبلدية وقعت.. ارضوا راياتكم واطلقوا خيولكم)^(١٤).

وظل يقاتل على رأس الراية الزرقاء حتى سقط تحتها شهيداً كما قال له المهدي من قبل. وعندما علم الخليفة بخبر انتقال يعقوب للرفيق الأعلى، اهتز جسده، وغطت الدموع وجهه، ورفع يديه إلى السماء وهو يقول بصوت متهدج:

(إنا لله وإنا إليه راجعون).
ومنذ تلك اللحظة التي فقد فيها الخليفة أخاه الأكبر، ذراعه الأيمن ومستشاره وصديقه، لا يستطيع أحد أن يزعم أنه رأى خليفة المهدي مبتسماً.

- (١) يحمل هذا المرتفع اسمين لم أتمكن حتى الآن من معرفة أيهما الأصح: فهو يسمى جبل سرغام وتارة أخرى جبل سركاب.
- (٢) صحيح البخارى، القاهرة، بلا تاريخ، الجزء السادس، ص ٧٨. وصحيح مسلم، القاهرة، ١٩٥٨م، الجزء الثانى، ص ٢٢.
- (٣) رواها الى الشيخ عساكر المكي أبو كلام وأبوركة، ديسمبر ١٩٨٦م.
- (٤) رواية حفيدة الأمير يعقوب، فاطمة بنت عمر بن الأمير يعقوب، نوفمبر ١٩٨٧م.
- (٥) المصدر نفسه.
- (٦) عثمان دان فوديو أحد علماء الفولاني، ولد في ١٥ ديسمبر ١٧٥٤ في مراثه بمنطقة غربو، واشتهر منذ شبابه بالكر بالورع والعلم، وقد أعلن في كتاباته وخطبه قرب ظهور المهدي المنتظر في أول القرن الرابع عشر الهجري في الشرق. وقد كتب عدداً من المؤلفات. وتحت قيادته فتح الفولاني حضبة فوتا - جالون وديار الهوسا، توفي في وسوكوتو في ٢٠ أبريل ١٨١٧م.
- (٧) ولد عمر سيدو بالقرب من بومور وربما كان ذلك في عام ١٧٩٤م أو ١٧٩٧م في هلوار وكان عالماً معروفاً ومعارباً مشهوراً في غرب إفريقيا، ترك عدداً من المؤلفات في الفقه والتفسير وأشهرها «الرماح» توفي في ١٢ فبراير ١٨٦٤م في باندياغارا.
- (٨) اسماعيل عبد القادر الكردفاني وسعادة المستهدى، سيرة الإمام المهدي، طبعة منقحة، حققها محمد ابراهيم أبو سلم، بيروت، ١٩٦١م، ص ١٤١، جهاد، ص ١٨.
- (٩) أعطانى هذا الوصف حفيدة الأمير يعقوب، أحمد عبد المجيد بن الأمير يعقوب، أبريل ١٩٦٨م.
- (١٠) يوسف ميخائيل، ذ.ص.، ص ٦٩.
- (١١) المصدر السابق، ص ٨١.
- (١٢) محمود أحمد، ابن عم الخليفة عبد الله، عامل عمالة الغرب من ١٨٩٠ الى ١٨٩٦م قاد بعد ذلك حملة الشمال، وأسر إثر موقعة النخيلة قرب عطبرة في أبريل ١٨٩٨م. أرسل إلى رشيد ومات عام ١٩٠٦م.
- (١٣) عثمان الدكيم، شقيق يونس الدكيم، من قبيلة التعايشة، كان عاملاً على بربر من عام ١٨٨٧م الى ١٨٩٠م، قتل في كررى عام ١٨٩٨م.
- (١٤) زلفو، ذكر سابقاً، ص ٥٠٩، والصفحات التالية.

عثمان شيخ الدين

انتقل عثمان شيخ الدين إلى الرفيق الأعلى وهو ابن أربع وعشرين، من جراء جرح أصيب به في أم ديبكرات ولم يحسن علاجه في حينه فالتهب وتوفي بعد أشهر من العيش في رشيد. وقد دفن في أرض مصر حيث يرقد جسده بعيداً عن وطنه، بيد أنه يرقد محاطاً بأهله، فعدد كبر من الأمراء كانت رشيد ودمياط مثواهم الأخير. وقد عجل الأسر وعدم العناية وعدم الحركة المفروض عليهم بنهاية حياة هؤلاء المحاربين الذين ألفوا حياة البدو النشطة ومعسكرات القتال الصاخبة. وربما دفع بهم سجانوهم إلى حتفهم، فقد كانوا من المساجين الذين يهرون المتاعب، ويمكن أن يكونوا هم أنفسهم وقد أثقلت الهزيمة كاهلهم وفقدوا كل أمل فرأوا في الموت السبيل الوحيد لانتعاشهم، بعد أن يقسوا من نيل الحرية، وماذا تعني الحرية للمهزوم الذي رأى الأعداء يحتلون بلاده ويسفّهون أحلامه، فأصبح الموت هو الملاذ الذي يجدون فيه الأمن والسلوى والجزاء على ما قدموا من عمل. فهم وإن لم يموتوا على أرض المعركة وسيوفهم بأيديهم ولم يتلقوا الموت وقد اغترسوا فرواتهم واستقبلوا القبلة، فإنهم قد قاتلوا كي تكون كلمة الله هي العليا، وسيتألون الجزاء الذي وعد الله به كل الذين يقاتلون في سبيله، والسجن نفسه شاهد على ذلك.

عثمان شيخ الدين هو الابن الأكبر للخليفة عبد الله وزوجته زهرة التعايشية. وكان قد ولد قبل مغادرة دار التعايشة، وكان صغيراً جداً عندما توفي جده الشيخ محمد بأبي ركة. نشأ عثمان شيخ الدين وترعرع في أم درمان على خلاف بقية أهله فلم يتمود على حياة البداوة الشاقة، بل كان حضرياً يتحدث لغة سلسلة، رقيق الحواشي أنيق الملبس، محباً للجمال ومتطلعاً للمعرفة. وما كاد يخرج من طفولته حتى اندفع للملذات الحسية سواء أكان ذلك بسبب أصدقاء السوء أم بسبب فورة الشباب، وقد أخذ ينزلق شيئاً فشيئاً نحو التهلكة الخلقى، فكان يقضى ليلاته في صحبة المغنيات والراقصات الحبشيات والمصرييات امتاعاً لسمعه وجسده.

استمرت حياته على هذا المنوال حتى انتبه الخليفة فقام بإبعاد رفاق اللهو عن ابنه ووضع

حداً لطيشه. وكان الخليفة قد عهد بابنه منذ صباه إلى شيوخ اشتهروا بالعلم والتقوى وقد أظهر عثمان رغبة قوية في التعلم لا تتناسب مع سنه ومكانته، وحتى عندما كان في غمرة لهوه، لم يكن ينسى أن يدخر شيئاً من زمنه لتفذية عقله وروحه، فكان يقرأ باستمرار كل ما يقع في يده من كتب وصحف تصل إلى السودان سرا عن طريق التجار القادمين من مصر أو تلك التي يتحصل عليها من الأعداء المقتولين أو المأسورين. وكان يحب الاتصال بالأجانب الذين عملوا في العهد التركي وقاتل النيل أو أولاد البلد الذين كانوا يعتبرون ذروة سنام المدنية، وذلك على عكس البدو القادمين من الغرب أو أولاد العرب. وكان يسعى للاحتكاك بهم للحصول على أخبار العالم الخارجي، ولكي يتعرف حياة معاصرة مختلفة عن حياته التي ألفها.

كان سلوكه ذلك شائئاً كله، فابن الخليفة عبد الله لم يكن يقضى ليلاته في اللهو فحسب، بدلاً من قراءة القرآن والحرص على الجلوس في مجلس والده ومجالس أولاد العرب، بل كان يميل لتفضيل الحياة الحضرية وملازمة أعدائه القدامى الذين كانوا يكتمون شيئاً من الكفر، على الرغم من اعتناقهم المهدية. وكان المخلصون للخليفة ينصحونه بإدخال ابنه في الجيش وذلك حتى يتقن فنون القتال ويتعود على حياة الطاعة والنظام، وقد اقترحوا إرساله إما إلى الزاكي طمل الذي كان يقاتل لردع الأحباش أو إلى الأمراء الذين يقودون بعض المواقع المتقدمة في الشمال. لكن الخليفة على الرغم من اقتناعه بهذه النصائح غلب عليه حبه لابنه، وبالرغم من أنه كان قاسياً على نفسه وعلى الآخرين إلا أنه كان ضعيفاً أمام ابنه، فالخليفة كان يرى أنه مازال صغيراً يافعاً لا يستطيع تحمل حياة المعسكرات القاسية.

كان عثمان يتمتع بكثير من اللطف لذا كان محبوباً لدى الجميع، مشاعياً حتى إنه كان في بعض الأحيان يتجاوز حدود الاحترام واللباقة، إلا أن طيبته ولطف اعتذاره كثيراً ما يؤديان إلى تهدئة غضب ضحايا سخريته.

يحكى أنه ذهب في أحد الأيام لزيارة المطبعة. وهناك شاهد لحية الشيخ المسؤول عنها، وكانت كثيفة جداً، فأمسك شيخ الدين بها وأخذ يجذبها قائلاً:

- إن لحيتي ليست طويلة كهذه.

فصفعه الرجل وذهب عثمان إلى والده شاكياً، وطالب أباه برد هذه الإهانة فقام الخليفة الذي كان لا يجمال أحداً أبداً ولو كان ابنه، وكان يحرص على التأكد بنفسه من صحة كل شكوى. فاستدعى الشيخ وطلب منه إيضاح حقيقة ما حدث فأخبره الشيخ وهو ما يزال

يرتجف غضباً . هناك صاح الخليفة قائلاً:

- للأسف لقد عجلت وأخذت قصاصك بنفسك ولولا ذلك والله لقطعت يده^(١).

بعدها وضع الخليفة ابنه تحت يده وفرض عليه نظاماً صارماً في الحياة. ووضع حداً لحفلات الطرب وليالي اللهو والمجون وأصبح عثمان بدلاً من أن يقضى وقته في الاستماع لأغاني الحب وإمتاع بصره وسمعه مع غانيات مصر والحيشة، شغل وقته بالدراسة على يد الشيخ الطيب هاشم الذي اشتهر بالشدة. وقد اختاره الخليفة بنفسه، فدرس شيخ الدين على يده اللغة والأدب والفقه ثم ضمه الخليفة للقضاء وهكذا أطلق عليه لقب شيخ الدين.

كان عثمان شيخ الدين يتمتع بحس عدلي عميق، فقد كان يقضى في كل الدين وقفاً أمامه حسب أحكام الشريعة الإسلامية. وكانوا جميعاً أمامه سواء، حيث إنه لم يكن يميز بين الفقراء والأغنياء ولا بين أبناء الغرب الذين ينتمى إليهم بصلة الدم والقبيلة وبين الذين يسكنون على ضفاف النيل، بل كان يعطى كل ذي حق حقه، فنال احترام كل سكان أم درمان لعادلته ونزاهته.

زوجه الخليفة من حواية إحدى بنات أخيه يعقوب ليهدىء من ثورة دماثة الحارة. وكان يهدف بذلك إلى تقوية صلات الدم ووضع نهاية للعدا بين العم وابن أخيه. إلا أن شيخ الدين كره فوراً ابنة عمه ولم يكن الزواج موفقاً. وحتى لا يقضب الأمير يعقوب أخاه طلب من ابنته الصبر وعدم الشكوى من صهره، وصمت شيخ الدين لنفس الأسباب وتحمل زوجته، ثم زوجه الخليفة إحدى بنات المهدي صفية والددة ابنه خالد.

وعثمان شيخ الدين الذي كان يتمتع بذكاء وقاد وعقل ناقد، لم ينجح في التعايش مع الوسط الصارم والتقليدي الذي كان يعيش فيه والده. وكان يسخر دون تردد من مستشاري والده الذين كان يراهم شيوخاً لا يهتمون إلا برفاهيتهم وحاجاتهم اليومية، لا بالدولة والمشاكل التي كان يجب عليهم مواجهتها. وكان يدفع الخليفة بروح ثورية تجديدية إلى التخلي عن كل تقليد للماضي. كان شيخ الدين يؤمن بضرورة مواكبة العصر والاستفادة من دروس التاريخ وعبره، وليس تقليد حياة الرسول (ﷺ) وأصحابه^(٢) تقليداً أعمى.

كان يحث والده على قبول عروض التحالف التي جاءت من منليك وخاصة عندما بدأت قوات المهديّة تتعرض للنكسات. ففي عام ١٨٩٥م أرسل منليك مبعوثاً إلى الخليفة طالباً التحالف معه والتوحد ضد الأجانب الأوربيين. إلا أن الخليفة رفض ذلك وحاول شيخ الدين، بلا جدوى إقناع والده مؤكداً له أن النجاح على حق وأن الوحدة الأفريقية تأتي قبل وحدة

الإيمان، فقد كانت السيادة بالنسبة إليه أهم من الدين.

وبعد هزيمة محمود ود أحمد نصبح والده بقبول مساندة فرنسا والسماح برفع علم فرنسا الذى أرسله له متليك على حدوده إلا أن الخليفة رد قائلاً :

- ينبغي على استشارة عمك يعقوب ورجال الخبرة فى المجلس .

لكن شيخ الدين تنهد بضيق وصرخ قائلاً:

- سوف يعطوننا أمثلة عن الرسول والحروب التى انتصر فيها المهدي دون مراعاة الفارق

الزمنى الكبير.

قام الخليفة بدعوة مجلسه إلى اجتماع عرض خلاله الوضع، فقال الأمير يعقوب لأخيه:

نحن نخوض الآن حرباً مقدسة فلا يجب علينا التحالف مع الأعداء إذ إن المهدي كان لا يملك سوى السيف وتمكن من طردهم جميعاً من بلادنا وسنفعل نحن مثله.

ساند الأمير يعقوب فى رأيه هذا عمومته ابراهيم الخليل واسماعيل أحمد، فاعترض شيخ الدين قائلاً:

- نعم، لقد أتى المهدي بالسيف وحده وحرر البلاد حتى الخرطوم ولكن أنتم ماذا حررتم؟ فهؤلاء الذين يحاربوننا تساندتهم العديد من الدول، أما نحن فماذا نملك لمواجهتهم؟
إننى أرى أن نرفع هذا العلم على حدودنا وهكذا تكون بلادنا محمية بدولة كبرى^(٣)

رفض يعقوب وأبناء عمه هذا الاقتراح، واشتد الجدل لدرجة التحدى بين العم وابن أخيه. وتبادلا الكلمات الجارحة وكان شيخ الدين يتحدث بغضب، فقد كان غاضباً من زوجته التى تركت منزلها وذهبت الى منزل أبيها، متهمة شيخ الدين بهجرها وإهمالها من أجل غايات المدينة. وأخذ شيخ الدين على عمه الوقوف بجانب ابنته بدلاً من ردها إلى عقلها وإرجاعها إلى منزل زوجها.

بعد هذه المجادلة غادر عمه المجلس وانتهر شيخ الدين هذه الفرصة محاولاً حمل والده على الأخذ برأيه، مذكراً إياه بأن يعقوب يعتقد أن كثرة العرب البدو تكفى لتحقيق النصر، إذ أنه لا يراعى قوة السلاح الناري والمهارة في استخدامه، فبالنسبة ليعقوب، استعمال السلاح الأبيض عند المواجهة الفردية يقود إلى النصر على السلاح الحديث. أدى سخط شيخ الدين على عمه إلى التحيز ضده.

لقد كان الأمير يعقوب على إمام تام بصعوبة الوضع إلا أنه لا يستطيع حث الخليفة على التحالف مع الكفار، بينما نظر شيخ الدين إلى الجانب الواقعي، فهو يرى أن مثاليات المهدي

لم تعد تواكب العصر ولم يكن يعتقد أنه بالتحالف مع الأجانب يصبح مسلماً عاصياً.
وقال لوالده:

— إن أخاك يعقوب لا يريد أن يكون تحت إمرة الكفار ولكن هؤلاء موجودون في كل مكان ولا تنجو دولة من قبضتهم. فأنا أقرأ الصحف وأتابع الأحداث الجارية الآن، فحالياً نحن لانملك مقاتلين، فقد قتلت أنت وأخوك زعماء أولاد البلد، ومن بقي منهم لن يقاتلوا معنا بل سوف ينضمون للأعداء، وأولاد العرب كثير العدد، وكلهم غير منظمين، فأرجو أن نسمع نصيحتي بقبول مساندة فرنسا. فإنها دولة كبرى والإنجليز سوف يترددون في مهاجمتها عندما نكون تحت حمايتها.

كان شيخ الدين يتحدث بحماسة الشباب واندفاعه، وكان الخليفة ينصت إليه في هدوء وأخيراً ختم النقاش قائلاً لابنه:

— يا بني إن أولاد البلد الذين تلومني على قتلهم، ما قتلهم إلا بأمر من الله، فقد عصوا أمر المهدية، وقد نفذ عمك يعقوب أوامري فقط، فنحن نجاهد في سبيل الله ونقاتل لنصرة كلمته ولا نستطيع التحالف مع الأعداء فالأمر بيد الله إذا أراد شيئاً فسوف يكون، ونحن سنفعل كل ما نقدر عليه، وإنا لله وإنا إليه راجعون^(٤).

وهنا صمت شيخ الدين، فهو يعلم جيداً أن هناك حدوداً لا ينبغي تجاوزها مع أبيه. وكان شيخ الدين يقود في هذا الوقت ملازمي الخليفة الشباب «الملازمين الجدد» وهي كتية مصفاة تتكون من الجنود السود والرهائن وأسرى الحرب أو الذين أخذوا لضمان ولاء قبائلهم، والذين انضم إليهم مع مرور الزمن بعض أبناء قبيلة البقارة والقبائل الأخرى.

وقد كان الانضمام لملازمي الخليفة شرفاً يتطلع إليه الجميع. وضم الخليفة عبد الله إلى هذه الكتية أشخاصاً أراد وضعهم تحت عينه. وتسلموا جميعاً بالسلاح الناري وكان شيخ الدين يقودهم بجديّة، وقد عمل على تسليحهم بأفضل الأسلحة وكان يحرص على تزويدهم بالذخائر وبالمؤن الجيدة.

كان شيخ الدين من أنصار فكرة وضع قوات كافية في ممر السبلوقة لمنع إبحار الأعداء، وعندما علم بقرار الخليفة بإخلاء السبلوقة وسحب القوات بسبب العجز عن التموين، غضب لذلك وسعى إلى حمل الخليفة على تغيير رأيه، غير أن الخليفة رد عليه بأن المهدي قال له في حضرة نبوية إن كررى سوف تكون مقبرة للكفار، وإن المعركة ستلور في هذا الميدان لكي تتناثر فيه بقايا عظامهم وتتعفن فيه جثثهم. ولم يتمكن شيخ الدين من الاعتراض، واتجه إلى

بيت الأمانة حيث مخزن الأسلحة كلها فقام باختيار أفضلها وأعطاهما للملازمة.

وعلى العكس من الأمراء الآخرين من أقارب الخليفة وأصحابه، فإن عثمان شيخ الدين المؤمن لم يعمه الإيمان، ففكره الناقد كان يبين له مواطن الضعف في وجهات النظر المختلفة ويمكنه من الإحاطة بكل جوانب المشكلة. ومنذ أن بدأت المهديّة تتعرض للهزائم في الشمال كان قد أيقن بالهزيمة معتمداً في رأيه على الواقع الملموس للأحداث فحسب. وبالأأسف فقد كان يدع مشاعره تتغلب على عقله. كان بينه وبين ابن عم والده إبراهيم الخليل تنافس ممزوج بالعداء في كل المواقف. فبالرغم من التقارب بينهما في السن إلا أنهما كانا مختلفين في الشخصية والسلوك، فبينما كان شيخ الدين لا يكثر بأمور القتال ولا ينشغل بالحرب، كان إبراهيم الخليل يحب القتال ويمتلك موهبة فطرية في القيادة العسكرية.

أوكل الخليفة عبد الله منذ بداية حكمه إلى ضباط الجيش التركي القدامى والأنصار الذين اشتهروا بفنون القتال مهمة تدريب الشباب المحيطين به، الذين انتقلوا من الحياة البدوية إلى المدينة. وكان عليّ كل الصبية الذين بلغوا سن القتال أن يلتحقوا بهذا التدريب وقد تميز فيه إبراهيم الخليل وأخوه محمود، لكن شيخ الدين كان يفضل المعارك الفكرية عليّ تلك التي تنجز بالسلاح. وكان يسخر بلا حياء ويهزأ مازحاً بطولات أهله وأبناء قبيلته. وكان خلال مجالس الخليفة يداوم على الاعتراض على آراء إبراهيم الخليل، وهذا الأخير كان يسلك نفس المسلك تجاه آراء شيخ الدين، وكان الخليفة، والذي يحمل الود نفسه لكليهما بزيادة قليلة لاهبه، يأخذ حسب حاله الذهنية برأي هذا أو ذاك.

كان الأمير يعقوب من أنصار فكرة التوجه نحو الغرب وذلك حتى يتمكن الأنصار من إصلاح وضعهم عن طريق حرب العصابات. وقد كان كل أمراء الغرب تقريباً يرون هذا الرأي ولكن أحداً منهم لم يجرؤ عليّ نصيح الخليفة بذلك، فمثلهم الزاكي عثمان^(٥) داعياً للانسحاب إلى الغرب ولكن الخليفة رفض هذا الرأي بشدة قائلاً:

- سأحمي مدينتي حتى النهاية وسأموت تحت ظل قبة المهدي.

ورمي بالزاكي في السجن، ثم أطلق سراحه عقب تدخل عثمان شيخ الدين^(٦) الذي عارض هذه الفكرة على الرغم من اقتناعه بصحتها.

انساق شيخ الدين لمألفته وقد أعشى عداؤه لإبراهيم الخليل ولعمه يعقوب بصيرته وحجبه عن رجاحة العقل والمنطق. وعندما انعقد مجلس الخليفة الأخير في أول سبتمبر بكرري، عارض بشدة إبراهيم الخليل الذي كان يرى، ويسانده في ذلك الخليفة شريف وعدد من

الأمراء، أن يهاجموا الإنجليز ليلاً. ولأول مرة استشهد شيخ الدين بالتقاليد ذاكراً أن المهدي كان يهاجم عادة عقب صلاة الفجر وأنه يحب إتباعه في ذلك، ويا للأسف رغم احتجاج ابراهيم الخليل العنيف، فقد انتصر رأى شيخ الدين وأمر الخليفة بالهجوم عند الفجر.

غادر ابراهيم الخليل المجلس غاضباً وجمع فرسانه وقادهم بنفسه مهاجماً مواقع الإنجليز الأمامية وظل يناوشهم طوال الليل وأنزل بهم خسائر فادحة.^(٧)

وقد زعم البعض أن شيخ الدين رفض القتال، ولم يخض غمار المعركة إلا نتيجة لأوامر الخليفة المتكررة ومن الصعب علينا الحكم على ذلك، لأن كل الروايات التي بين أيدينا عن المعركة جاءت من الأعداء، ولانملك أى شهادة من أحد الذين اشتهروا في القتال، وذلك لقلة الأحياء واختلاف رواياتهم للأحداث بيد أن هناك أمراً مؤكداً وهو أن شيخ الدين لم تكن لديه أى خبرة عسكرية ولكنه قد ورث شجاعة أهله وكان يعرف القتال. أما الملازمون فقد كان منوطاً بهم حراسة دار الخليفة وبيوت الأمراء وليس حماية الأماكن الاستراتيجية أو الدفاع عن المواقع المتقدمة على الحدود. وكان قاتلهم هو ابن الخليفة فحسب، ولم يكن من الضروري أن يكون محارباً محنكاً.

أما في كررى، فقد كان الأمر مختلفاً، كان شيخ الدين يقود قوة الإنفاذ، وبدلاً من انتظار الأمر بنجدة الراية الزرقاء، انطلق بفرسانه متعقباً فرقة من الرماة، وعند رجوعه منهكاً من مطاردته غير المجدية، كانت الهزيمة على وشك الوقوع. وعندها لم يكن أمامه خيار سوى القتال. فانسحب برجاله إلى أم درمان وكان يريد أن يقاتل بين المنازل حتى يموت تحن أنقاض المدينة التي نشأ وترعرع فيها. ولكن جاء أمر الخليفة بالانسحاب إلى الغرب، وما كان له إلا أن يطيع الأمر.

وقاتل في أم ديكرات حتى جرح في يده، وبينما كان جرحه يضمّد اقترش والده فروته وذهب للقاء ربه حاول شيخ الدين الانضمام إليه، ولكنه سقط على الأرض بلا قوة. لم تكتب له الشهادة وتجرح مرارة الهزيمة والأسر، حتى فتح له الموت الباب إلى الجنة التي وعد الله الذين يقاتلون في سبيله.

ألا طيب الله نرى مصر الذي ترقد عليه يا عثمان شيخ الدين، ابن الخليفة، ولتهدأ في قبرك حتى يقوم الخلائق للقاء ربهم يوم الحساب، يقول الله تعالى:
(والذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم)^(٨). صدق الله العظيم.

(١) زلفو، ذ.س. ص ٢٦٢

(٢) يوسف ميخائيل، ذ.س. ص ٩٩ - ١٠١

(٣) نفس المصدر ص ١١٦ - ١١٧

(٤) نفس المصدر.

(٥) محمد الزاكي عثمان، أمير وعامل بربر من عام ١٨٩٠ إلى ١٨٩٦ م، تم إعادته إلى بلد وصوله وصولاً إلى النجدة

وأقام بها حتى تم إبعاده المدينة في يوم الخميس ٢٧ أغسطس ١٨٩٧ م، وأُطلق في كربلاء عام ١٨٩٨ م.

(٦) زلفو، ذ.س. ص ٣١٥ - ٣١٦.

(٧) نفس المصدر، ص ٤٠٨ - ٤١١.

(٨) القرآن الكريم - سورة محمد الآية رقم (٤).

الأمير عثمان آدم

فى عام ١٨٨٦م كانت مجموعة كبيرة من جيوش المهديّة تتقدم نحو مدينة الأبيض، بمختلف راياتها التى ترفرف من سرعة تقدمها شوقاً لدخول هذه المدينة، وعلى رأس تلك القوات ضى ذو وجه نحيل تكسوه القوة ورباطة الجأش، تملو رأسه عمامة ناصعة البياض، يرتدى جبة من الدمور مرقعة بقطع مختلفة الألوان، حاملاً سيفه فى غمد عادى من الجلد ويده حربة كبيرة «كبس» وعلى ظهره كنانة مملوءة بحراب صغيرة. فارس تقرأ من ملامحه وسامة بالرغم من آثار السهر والارهاق، ذو سحنة سمراء، على وجهه آثار الجدرى غير أنها لم تشوه ملامح وجهه، وتشع عيناه السوداوان من حين لآخر. لحته دائرية صغيرة وشاربته خفيف، ربعة نحيف، لكنه قوى نشيط. هذا الفارس هو عثمان آدم ابن عم الخليفة. وقد كان فى طريقه لتقلد منصبه عاملاً على كردفان. وعندما اقترب عثمان آدم وأصحابه من بوابة المدينة فتح الباب على مصراعيه ليخرج منه فارس طويل القامة شديد سواد اللون قد غطت رأسه خوذة من حولها عمامة حمراء، ومن خلفه قرابة المائة فارس، فارعى الطول، حاملين على أكتافهم دروعاً تعلوها فراء من جلود الفهود. وعلى أرجلهم دروع واقية عليها أجراس صغيرة تصدر صلبة قوية عند كل حركة، وكانوا جميعهم مسلحين بالبنادق والسيوف والحراب.

عندما رأى عثمان آدم هذا الفارس ترجل من على فرسه مسرعاً لتحيته باحترام وشوق، حامداً ربه الذى أتاح له مقابلته ورؤيته مرة أخرى. وكان هذا الفارس هو القائد المقدم حمدان أبو عنجة الذى أمره الخليفة بمغادرة جبال النوبة والتوجه إلى الأبيض، حتى يسلم زمام أمر المدينة لعثمان آدم بعد وفاة عاملها محمود عبد القادر^(١) وذلك لتفادى أى تمرد جديد.

الفارس عثمان آدم ضى فى مستقبل العمر إذ لم يكد يتجاوز العشرين عاماً، إلا أنه رجل حرب وبأس، بل هو صورة حية للفارس العربى المقدم، ذو حنكة ودهاء فى الشؤون السياسية والعسكرية، مقدم جسور لا يقدم على فعل شىء إلا بعد تمحيص وتدقيق، ويتنوع بكل صفات الرجولة، متى ما قرر أمراً مضى لا يلوى على شىء. لا يهاب فى الحق لومة لائم.

ولقد عاش في زمن وفي بلد عرف كل رجاله بالشجاعة، فاشتهر بينهم بإقدامه واحتقاره للموت، وزهده في هذه الدنيا الفانية، ورغبته في الآخرة، مكرساً كل أفكاره وأعماله في سبيل الله، والدنيا لاتعنى عنده إلا قليل متاع وتتوجه كل أفكاره إلى الآخرة . وكان بتصوفه يرى أن نزوات الدنيا ولذاتها ما هي إلا عقبات تحول دون السمو الروحي . وكان يبلغ في تواضعه وطاعته للخليفة عبد الله حداً بعيداً، حيث كان يعطيه في كل الظروف، الشيء الذي وضعه في مكانة عالية لدى الخليفة. وكان جد الخليفة على الكرار أخاً لعمر جد عثمان آدم. وبالرغم من صغر سن عثمان إلا أنه كان حكيماً حريصاً ومتروياً. لكل ذلك فقد عينه الخليفة عاملاً على كردفان طالباً منه اعتماد محاولات التمرد والعصيان التي يمكن أن تحدث، وحث القبائل على الهجرة إلى أم درمان حيث مقر الخليفة.

كانت تلك مهمة صعبة وشاقة، ولكن عثمان آدم نجح فيها نجاحاً عظيماً على الرغم من كل الصعاب التي واجهته. فقد ترك القرب هادئاً نسيباً عند وفاته في عام ١٨٩٠م، وقبائل البقارة هاجرت إلى أم درمان حسب أوامر الخليفة. إن هذه الإنجازات لم تحقق دون عقبات جسام، فبعد وصوله إلى الأبيض كان عليه أن ينظم إدارة المدينة والوحدات العسكرية الموجودة بها، وقد تمكن بمساعدة الأمير حمدان أبي عنجة الذي كان عثمان آدم يطلب منه دوماً النصيح نسبة لحنكته العسكرية، وبمساعدة ود النجومي ، من القضاء على تمرد الكبابيش^(٢) ، فبعد عدة مصادمات دامية تمكن من حصار قائد التمرد وقتله^(٣) بيد أحد قواده ويدعى سليمان أحمد أكرت^(٤) ، وساعده في ذلك سيماوى تمساح^(٥) زعيم قبيلة دار حامد الذي كان يكن عداً قديماً لزعيم الكبابيش صالح فضل الله لقتله والده وعمه. وقد أرسل رأس صالح فضل الله سالم إلى الخليفة وتشتت شمل قبيلته، وقد تم ضم كل من بقى على قيد الحياة من رجاله إلى جيوش المهدي وأخذت أموالهم وخاصة جمالهم غنيمة، وقد عين الخليفة زعيماً آخر على رأس قبيلة الكبابيش.

بعد أن أخذ عثمان آدم تمرد الكبابيش، كان عليه أن يترك كردفان لقمع تمرد الفور الذين استغلوا فرصة أن حاكمهم الحالي هو ابن سلطانهم القديم فحاولوا زعزعة سلطة المهدي، إذ إنهم لم ينضموا إلى دولة المهدي بإخلاص، أو عندما عين يوسف إبراهيم^(٦) عاملاً على الفاشر لم يتصرف بوصفه عاملاً من عمال المهدي وإنما تصرف بحسبانه سلطاناً، فهو ابن سلاطين الفور وحفيدهم - لولئك الذين حكموا هذه المنطقة لعدة قرون. وقد أعلن تمرده

علانية وهاجم قوات المهدي المتمركزة في منطقة دارة، وفي تلك الأثناء وصل عثمان آدم إلى المدينة وتمكن من انقاذها. وصل عثمان آدم إلى دارفور في بداية شهر نوفمبر عام ١٨٨٧م وكان في شكاً وتقذاك ابنا كركساوى^(٧) اللذان انضموا إلى معسكر عثمان آدم بالأضية.

وقد كانت قواتهما تتكون في غالبيتها من جنود تجار الرقيق السابقين «البازنجرة»^(٨) وقد شهد كرم الله ، الذى كان قد جاء من بحر الغزال بأمر من الخليفة لمقاتلة الرزيقات ، كل قواته تقريباً وهى تتمزق نتيجة للمعارك التى خاضتها ضد المتمردين. أما أخوه محمد شيخ الدين كركساوى فقد قاد كذلك عدة معارك ضد يوسف ابراهيم وقد تكبد أيضاً خسائر فادحة. خاض عثمان آدم معارك طاحنة حتى دخل الفاشر فى يوم ٢٥ يناير ١٨٨٨م وكان قوام جيشه ١٧١٥٩ رجلاً. أما يوسف ابراهيم فقد هرب إلى جبل مرة، وقد تعقبه الأنصار حتى تم القبض عليه فى مارس ١٨٨٨م بعد أن أبدى مقاومة ضارية حيث هزم وأرسل رأسه ورؤوس أهم قواده إلى أم درمان، وبذلك كانت نهاية مقاومة الفور. وقام عثمان آدم بوضع نظم الحكم المهدي بالفاشر وجعلها مقراً لقيادته. ثم أصدر الخليفة عبد الله مرسوماً يقضى بدمج كردفان ودارفور وأطلق عليها اسم عمالة الغرب حتى يسهل حكمها. وعين عثمان آدم عليها.

بدأ عثمان آدم فى دعوة قبائل البقارة إلى الهجرة إلى أم درمان ولبت بعض القبائل دعوته حيث تحركوا بأسرهم وأسلحتهم وجيادهم، وقام عثمان آدم بإرسالهم إلى أم درمان . أما القبائل التى تركت أسرها من خلفها فكان عليها الرجوع لتجميعها وإرسالها إلى أم درمان. هناك بعض القبائل وخاصة الرزيقات^(٩) والتعايشة والهباتية^(١٠) قد تمردت على أمر الخليفة ورفضت ترك ديارها. وكانت الهجرة والجهاد من أهم مبادئ المهدي. وفى حياة المهدي كانت الهجرة إليه واجباً على كل المؤمنين إيماناً صادقاً بمهديته، وبعد وفاته أصبحت الهجرة واجباً لأجل زيارة ضريحه ونيل بركاته، وكان المهدي قد اختار عبد الله خليفة له ووارثاً لسلطته الروحية لذا كان فرضاً على كل فرد الهجرة إلى أم درمان لأداء البيعة له. أما الذين رفضوا ذلك أو تذرعوا بأعذار واهية فهم فى عداد أعداء الله لأنهم قد خالفوا أوامر مهديته فتهدر بذلك دماؤهم وأموالهم، وبعد أن رفضوا الإنصياع له أمر الخليفة عبد الله الأمير عثمان آدم باخضاع هذه القبائل وتخريب زراعتهم وديارهم. ولتحقيق هذا الهدف عمد عثمان آدم إلى غرس روح العداء والفتنة بين تلك القبائل، فاستفاد من العداء والكراهية الموجودة بين

الرزىقات والحمر^(١١) فكذب إلى الرزىقات قائلاً لهم كلوا أموال الحمر وممتلكاتهم لأنهم فاسدون وأنتم أنصار المهدية وكتب نفس الشيء إلى الحمر^(١٢).

وبذلك أضعف القبائل حتى سهل إخضاعها. وبعد عدة مصادمات دموية استطاع قهر القبائل المتمردة، وقدم زعماء التمرد فروض ولائهم لعثمان آدم وأعلنوا استعدادهم للهجرة إلى أم درمان. أما قبيلتنا التعايشة والهبانية فقد رفض السواد الأعظم منهم ترك مناطقهم. فأرسل إليهم عثمان جيشاً جراراً تم تكوينه من قبائل مختلفة تحت قيادة الختيم موسى والبخارى ريدة وفضل النبي أصيل^(١٣). وقد قسم الجيش إلى قسمين، القسم الأول بقيادة الختيم موسى وفضل النبي أصيل ودخلت هذه القوات دار التعايشة وخربتها خراباً كاملاً. فطلب زعماء هذه القبائل الأمان وقبلوا الهجرة إلى أم درمان. أما القسم الثاني فكان بقيادة البخارى ريدة ودخل دار الهبانية، وبعد عدة معارك طاحنة استسلم الهبانية وقبلوا الهجرة إلى أم درمان. وحضر الهبانية والتعايشة إلى الفاشر وأدوا البيعة أمام عثمان آدم، وطلبوا منه العفو من كل ما اقترفوه من معصية وطلبوا أن ترد إليهم أموالهم وأنعامهم، فعفا عنهم عثمان آدم وأرسل إلى الخليفة لكي يصدق على ذلك. أما الغنائم التي أخذت أثناء المعارك التي كانت في الغالب عبيداً وأبقاراً فقد أصبحت ملكاً لبيت المال. فأعطاهم عثمان آدم بعض التعويض. ومنع الأنصار من أن يستولوا ولو على اليسير من ممتلكات هذه القبائل ومن احتقار أى فرد من أفرادها أو إساءته ثم أعطاهم جماًلاً وأرسلهم إلى أم درمان. ولم يمنعهم كل ذلك من محاولة الهرب والعودة إلى ديارهم متى ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فكان الأنصار يلحقون بهم ودارت معارك شرسة كانت تنتهى بانتصار الأنصار وأسروا الهبانية والتعايشة الذين تعاونوا معهم وكبلوهم بالقيود ثم واصلوا مسيرتهم إلى أم درمان. وبقي زعماء التعايشة الهبانية ورجالهم الذين لم يهربوا مع الأنصار بعد أن استسلموا لعثمان آدم، بل ساعدوا الأنصار ضد رجال قبائلهم ولكن هذا لم يدم طويلاً، فبعد وصولهم إلى أم درمان بقليل، هرب الغزالي أحمد خواف^(١٤) زعيم التعايشة فتمقبه الأنصار وقتلوه.

بعد أن قمع عثمان آدم تمرد البقارة كان عليه محاربة القبائل الأخرى وهى قبائل وثنية فى الغالب فى شمال دارفور ومعظمهم كانوا من الذين تحالفوا مع الفور ضد الأنصار. وأرسل إليهم عثمان آدم عدة جيوش بقيادة أشد قواده، فأرسل محمد بشارة لقمع قبيلة الميذوب، وقد كان رغم صغر سنه فارساً محنكاً وقائداً مطاعاً ومحبوفاً لدى جنوده ومدرباً على فنون

الحرب. فهزمهم بعد معارك شرسة وأخذهم إلى الفاشر. وفي الطريق إلى أم درمان تمكنوا من الهرب والاحتماء بجبالهم ولم يستطع الأنصار ملاحقتهم، فاضطر عثمان آدم لتركهم لأنه كان قد حرك قواته لشن حملة ضد دار تاما. أما الزغاوة، بقيادة ملوكهم فقد قاوموا الأنصار ورفضوا الإنصياع لأوامر المهديّة، فأرسل عثمان آدم عليهم قوة بقيادة العطا أصول^(١٥) الذي قاتلهم وكاد أن يهزمهم لكنه اضطر لترك الإقليم وذلك لنجدة عبد القادر دليل^(١٦) الذي كان يواجه صعوبات شديدة بدار قرأ، وكان العطا أصول قبل أن يشن هجومه على الزغاوة وبعد أن تعقب الفور وهزمهم قد اتجه لحلفائهم من المهديّة وهزمهم بعد معارك دامية وأرسلهم أسرى إلى أم درمان^(١٧).

كل هذه المعارك الداخلية خلفت وراءها عدداً كبيراً من القتلى بصنوف الأنصار فكانت القبائل تعود إلى التمرد عندما يفادر الأنصار ديارهم أو حتى عند بقاء قوات قليلة العدد من الأنصار في تلك المناطق.

استأنف أبو الخيرات أخو يوسف إبراهيم، الحرب مرة أخرى ضد المهديّة، وتجمعت من حوله جميع قبائل الفور وقبائل أخرى. وبعد فترة ادعى رجل من دار تاما خلافة عثمان بن عفان التي عرضها المهدي على السنوسي ورفضها. هذا الرجل لا يعرف عنه إلا القليل فقد كان (فكياً) متخصصاً في الطلاسم والسحر بجميع أنواعه. اسمه الحقيقي هو محمد الزين وقد اشتهر باسم أبي جميزة وذلك يعود إلى شجرة كان قد اعتاد الجلوس تحتها. وقد ادعى بأنه رأى في المنام النبي (ﷺ) وأخبره بأنه الوريث لخلافة عثمان بن عفان وأن كل الغرب سوف يكون تحت رايته. وقد آمن بدعوته هذه كل سلاطين التاما وقمر والبرنو وسالا، ومما جذب إليه قلوب كثير من البسطاء أنه أعلن أن الله أمره بفتح طريق مكة وأن الحجاج يمكنهم التوجه لأداء الحج منذ تلك اللحظة، وكان المهدي قد أغلق هذا الطريق ومنع الحجيج من الذهاب إلى مكة حتى يتم تطهيرها من فساد وظلم القائمين على أمرها.

وقد علم عثمان آدم بذلك عن طريق الرسائل التي بعثها إليه الختيم موسى الذي كان قد أرسله لردع قبيلة تاما التي لجأ إليها كثير من المتمردين، وقد رفض سلطانها تسليمهم. أرسل عثمان آدم للخليفة يخبره بهذا الأمر وبدأ يعدّ العدة للجهد فأصدر نداء عاماً لكل رجال الغرب يدعوهم فيه للاتضمام إليه في الفاشر. وبعد أن جهّز جيشه أرسله تحت قيادة محمد ودبشارة ضد دار تاما. وقد استدعى لأجل ذلك كل الحملات التي كان عليها التجهيز لهجرة

القبائل إلى أم درمان. فأرسلهم لتعزيز الأنصار الذين يخوضون المعارك ضد دار تاما والديار المجاورة لها. وقد استعد عثمان آدم لشن المعارك بنفسه ضد أبي جميزة الذي هزم ثلاثة جيوش من الأنصار على التوالي. (١٨).

وأما أبو جميزة فقد صبغ أهدافه بصبغة دينية من أجل تحقيق مآربه السياسية وسحق أي قوة أجنبية على دياره فادعى أن المهدي قد عينه لخلافة عثمان بن عفان التي رفضها السنوسي. وهذا يعني أنه قد آمن بالمهدي ولكنه حارب أنصاره وعلى رأسهم خليفته وذلك لأنهم لم يقرؤا بخلافته. وقد كان ذلك ضرباً من الانشقاق ولكنه كان أقل خطورة من النبي الكاذب عيسى الذي ظهر في منطقة القلابات.

أمر الخليفة القائد عثمان آدم أن يسحق أبا جميزة وأتباعه بكل السبل وأن يكشف من الدعوة الدينية في تلك المناطق بعد نهاية المعارك. ولم يكن عثمان آدم بحاجة لحثه على ذلك، فقد كان يراقب بدقة أداء كل الواجبات الدينية التي أمر بها الله تعالى في وسط جيشه، وكان حريصاً على أن يؤدي كل فرد صلواته وتلاوة راتب المهدي صباح مساء. وقد عكف هو نفسه على أداء النوافل، وكان يذكر رجاله دوماً بأن حب الغنائم أكثر من حب الجهاد في سبيل الله هو أحد أسباب الهزيمة. وإذا هزم الأنصار في معركة فذلك للهتهم وراء الغنائم والسبايا وعدم رغبتهم في الاستشهاد في سبيل الله. لذلك فقد كان حريصاً على أن لا يتخالف أفعاله أحكام الله. كان يطبق التعاليم الدينية المذكورة في القرآن في أهون أمور الحياة. وكان يحس بأقل الأخطاء كأنها كبيرة من الكبائر. ويحكي عن صدقه وأمانته حكاية جاءت على لسان المهدي فقد عاد ذات يوم إلى منزله بعد أدائه لصلاة العشاء، فوجد بقرة مربوطة أمام باب منزله فاستغرب لوجودها في هذا المكان فذهب مسرعاً لوكيله محمد بشارة الذي قال له:

— نحن أخذنا لك هذه البقرة من خمس الخليفة عبد الله حتى تشرب من لبنها.

فسأله عثمان آدم:

— هل أذن لك الخليفة بذلك؟

فرد قائلاً:

— انه لن يمانع أن يعطيك البقرة. فقال له عثمان آدم:

- وكيف عرفت ذلك ؟

ورفض الموافقة على أخذ البقرة وأمر بإعادتها إلى بقر الخليفة ومنع دخول أى بقرة إلى منزله^(١٩).

كان عثمان آدم شديد الكرم. كما كان فى رسائله للخليفة يجد العذر لمن كانوا حوله ويمدح مزاياهم وحماستهم للدين. وقد كان متشديداً على نفسه متساهلاً مع الآخرين، فخلال كل حملاته ضد أبى جميزة وأتباعه لم يقترب أبداً من امرأة. كما كان زاهداً فى أكله، خشن الملبس، مقبلاً على كل ما يرضى الله. كان يصف أبى جميزة بالثالث الضال، وأنه ليس متبرداً على المهديّة فحسب بل كافر ملحد يجب على المؤمنين أن يرفعوا السيوف فى وجهه. وأن من يقتله فستكون الجنة مثواه. عندما تحرك جيش أبى جميزة إلى الفاشر تجمعت قوات المهديّة حول عثمان آدم وكان عليهم أن يمنعوه من الدخول إلى الفاشر مهما كلفهم ذلك من ثمن. أما الفور تحت قيادة أميرهم أبى الخيرات وقبائل أخرى فقد كانوا يسعون للانضمام لأبى جميزة فأرسل عثمان آدم عليهم ابنى كركساوى اللذين عرفا بمهارتهما فى فنون القتال واستعمال الأسلحة وقد تمكنا من رد جيوش الفور بعد أن فقدوا كثيراً من رجالهما وذخائرها.

لقد أصيب جيش أبى جميزة بوباء الجدري الذى ألحق بهم خسائر كبيرة، وكان من ضمن ضحاياه أبو جميزة نفسه الذى توفى تاركاً قيادة جيشه لأخيه ساغة، الذى خاض معارك ضارية ضد الأنصار، تآرجحت خلالها كفة النصر بين الفريقين، ثم كان النصر حليفاً للأنصار. وقد قتل ساغة وأهم حلفائه فى ٢٢ فبراير ١٨٨٩م عند سفح الهضبة التى تقوم عليها الفاشر. وقد كانت خسائر هذه المعارك كبيرة لكلا الطرفين.

انتهاز عثمان آدم فرصة هذا الانتصار العظيم فحرك قواته نحو سلاطين الغرب الذين أهدوا أبى جميزة وكذلك نحو الذين وقفوا على الحياد تجاه ذلك الخلاف. وقد جهز جيشه من أجل التحرك نحو وداى إلا أن تفشى وباء التهاب الرئة الحاد «أبودوم» بين أفراد قواته قد منعه من ذلك. وقد أصيب عثمان آدم نفسه بذلك الداء. كما أصيب به نصف جيشه مما اضطره للعودة إلى الفاشر من أجل الراحة. وكتب رسالة أخيرة إلى الخليفة طمأنه فيها على حالة قواته وعبر عن شوقه لرؤياه مرة أخرى. ولكن وبعد أيام قليلة من رسالته تلك بدأ يحس باستفحال هذا المرض فى جسده وأنهكه السعال فلم يستطع مواصلة الرحلة راكباً، فعاد محمولاً على

نقالة إلى الفاشر. وظل بعدها يصارع الموت لمدة ثلاثة أيام وأصحابه من حوله وعيونهم دامعة. وقال لهم رغم أنه كان يفضل الموت في ساحة الوغى، إلا أن في الموت بشارة خير لأن الله قد وعد بالجنة للذين يقاتلون من أجله. وفي اليوم الرابع بعد الظهر بعد أن قدم النصيح لأصحابه نطق بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله^(٢٠).

توفى ودفن بداخل منزله بالفاشر حسبما طلب قبل وفاته. ومات بهجته التي أرسلها إليه الخليفة عبد الله والتي كان يرتديها في المعارك العسكرية. وأخفى أصحابه خبر وفاته مخافة الاضطرابات التي قد يحدثها المتمردون وأرسلوا رسائل إلى قادة الحملات وهم محمد بشارة وسليمان أحمد أكرت وطلبوا منهما الحضور بقواتهما إلى الفاشر، وكتبوا إلى الخليفة وأخبروه بهذا الخبر الأليم^(٢١). بكى الخليفة عندما قرأ هذا النبأ، فقد كان يحب عثمان آدم حباً شديداً ليس لصلة القرابة التي تربطه به فحسب وإنما لأنه كان كذلك قائداً محنكاً يعتبر موته فقداً عظيماً للدولة. كان عثمان آدم من أعظم أمراء المهديّة، وخصاله الإنسانية السمحة قد أهلته لنيل احترام الجميع، فقد كان زعيماً يشار إليه بالبنان، وكان اسم «جانو» الذي أطلق عليه ويعنى الزعيم الحقيقي في لغة الفور ينطبق عليه اسماً على مسمى^(٢٢).

(١) محمود عبد القادر عم المهدي الذي عينه في البداية عاملاً على فدير عام ١٨٨٢م ثم على الأبيض عام ١٨٨٣م فمكث بها حتى نهاية عام ١٨٨٥م. بعدها عينه الخليفة عبد الله عاملاً على دنقلا ولكنه لم يتسلم هذه القيادة وقد قتل في نهاية نفس العام بجبال النوبة على يد الجهادية المتمردين من الأبيض. وكانوا قد تمردوا عندما كان محمود عبد القادر بأم درمان ، فحاول محمود عبد القادر اخضاعهم من جديد بالقوة ولكنه قتل هو ومعظم أفراد قواته في العشرين من ديسمبر عام ١٨٨٥م.

(٢) قبيلة الكبابيش من أكبر قبائل كردفان، وهي قبيلة بدوية تعتبر من أغنى القبائل وأكبر مربي الجمال في السودان. لهم صلات تجارية وثيقة مع مصر.

(٣) كان زعيما الكبابيش في خرة المهدي هما ابني فضل الله سالم ، التوم وصالح وبعد الاستيلاء على الأبيض أمر المهدي بقتل التوم بتهمة التعاون مع أعداء المهدي فحمل أخوه صالح السلاح ضد المهدي انتقاماً لمقتله. وقد ناضل لمدة سنتين تقريباً ومعه أفراد قبيلته وهزم أخيراً وقتل في شهر مايو عام ١٨٨٧م.

(٤) سليمان أكرت أمير جملى وقائد إحدى الرايات، كان وكيلاً لثمان آدم، وكان على رأس إحدى الحملات التي أرسلت ضد فضل الله سالم، كما شارك في حملات كثيرة مع عثمان آدم على دارفور وقد ذكر اسمه كثيراً في الرسائل التي كان يتبادلها عثمان آدم والخليفة عبد الله - المهدي ١١/١ و ١٢/١ .

(٥) سيمباوى تمساح زعيم قبيلة أولاد حامد التي كانت علي حياء مع الكبابيش عرف باسم «جرهجر» ثم عرف بعد ذلك باسم «قريقر» (Grieger) وهو الاسم الذي أطلقه عليه سلاطين (هولت ، ذكر سابقاً) الدولة المهدي في السودان (١٨٨١ - ١٨٩٨) (The Mahdist State Sudan 1881 - 1898) (أكسفورد الطبعة (٢) ، ١٩٧٠م ، ص ١١٥.

(٦) يوسف بن ابراهيم محمد الحسين آخر سلاطين الفور. عين حاكماً على القادر ضد سلطة المهدي. وقد ساعدته بعض قبائل الفور التي أعلنت سخطها على المهدي. حارب لأكثر من عام وهزم أخيراً في عام ١٨٨٨م. وقتل على يدى أحد قواد عثمان آدم وهو الختيم موسى وأرسل رأسه إلى أم درمان.

(٧) محمد وكرم الله الشيخ محمد أحمد كركساوى. كان محمد أميراً على شاكا وكرم الله أميراً على بحر الغزال التي غادرها عام ١٨٨٥م بأمر من الخليفة وقد قاتل كرم الله وأخوه محمد بجانب عثمان آدم في كل حملاته في الغرب. كما حاربوا من بعده تحت راية أحمد علي ثم تحت راية أخيه حامد.

وجرح كرم الله في منطقة فرقة كما جرح كذلك في موقعة كبرى. ثم عاد إلى القادر بعد سقوط الدولة المهدي وقد أعدمه السلطان على دينار في عام ١٩٠٣م بحجة أنه يدير مؤامرة ضده «الاستخبارات السودانية» تقرير رقم ١١٢، نوفمبر ١٩٠٣م، ص ٤ - ٥.

(٨) بازنجر: بازنجر اسم أطلق على قوات تجار الرقيق والتي تتكون من القبائل الزنجية. وهذا الاسم ينسب البعض إلى قبيلة زنجية و ينسب البعض الآخر إلى المارشال بازين الذي قاد بعض القبائل السودانية الزنجية التي حاربت في المكسيك، والبازنجر اسم أطلق على الجنود السودانيين الذين كانوا يعملون في الجيش وكانوا

في الغالب من العيد المحررين، وينسبه ونجت بالآ إلى اسم قبيلة كان الزبير باشا يختار جنوده منها لاصطياد العيد. وفي وثائق المهدي يقصد بهم على وجه التحديد قوات كرم الله وأخيه محمد.

(٩) إحدى قبائل البقارة من أغني القبائل في جنوب شرق دارفور.

(١٠) إحدى قبائل البقارة في جنوب شرق دارفور.

(١١) قبيلة عربية تعيش في دارفور وكردفان. وكانوا في السابق بدواً رحلاً وأصبحوا الآن حضراً بعد استقرارهم في منطقة النهود في الحدود بين إقليم دارفور وكردفان بالقرب من جبل بنبوم. وكانوا من أغني مربي الجمال. وقد استقروا في منطقة أم شقة بدارفور.

(١٢) دكلوا أموال الحرم فأنهم فاسدين وأنتم متجهين تلك هي كلمات الرسالة التي بعثها عثمان آدم إلى الخليفة عبد الله في ٢٢ شعبان ١٣٠٥ هـ الموافق ٤ مايو ١٨٨٨ م، مهدي ١٢/١.

(١٣) البشاري ربة أمير وقائد أحد أرباع قوات الغرب. وهو تمايش من عشيرة الجبارات. صاحب عثمان آدم في جميع حملاته ثم صاحب محمود أحمد من بعده. قتل في معركة النخيلة عام ١٨٩٨ م. فضل النبي أصيل أمير تمايش وقائد أحد أرباع جيش الغرب. أرسله محمود أحمد عام ١٨٩٣ م إلى دار الجانقي على رأس حملة وقتل في معركة الجانقي أو القرنت عام ١٨٩٣ م الموافق ١٣١٠ هـ. رسالة من محمود أحمد إلى الخليفة عبد الله في ١٩ رمضان ١٣١٠ هـ الموافق ٦ أبريل ١٨٩٣ م، مهدي ١٣/١١.

(١٤) الغزالي أحمد خراف الزعيم الوريث للتمايش من عشيرة أولاد سته، عارض دوما الخليفة عبد الله. وأبدي طاعته ظاهرياً ثم تأمر وسجن عام ١٨٩٠ م. استطاع أن يهرب ثم قبض عليه وقتل عام ١٨٩١ م.

(١٥) العطا أصول من أمراء التمايشية وقائد أحد أرباع قوات الغرب. شارك في جميع حملات عثمان آدم ومحمود أحمد. قتل هو وجميع رجاله في معركة النخيلة في ٥ أبريل ١٨٩٨ م.

(١٦) أمير وقائد أحد أرباع قوات الغرب. شارك في كل معارك عثمان آدم ومحمود أحمد. قتل على رأس ربه في معركة النخيلة عام ١٨٩٨ م.

(١٧) موسى المبارك الحسن، تاريخ دارفور السياسي ١٨٨٢ - ١٨٩٨ م، الخرطوم، بلا تاريخ، ص ١٦١ - ١٧٣.

(١٨) المصدر السابق، ص ١٤٧ - ١٦١.

(١٩) دفتر علي المهدي ص ٧٥١، مهدي ٧٠/١٠٨.

(٢٠) موسى المبارك الحسن، ذم، ص ١٧٣ - ١٨٠.

(٢١) رسائل من الأمراء: البشاري ربة والعطا أصول وعباس هوتوت وعبد الحميد محمد.

(٢٢) لقب أطلق على عثمان آدم وهي كلمة من أصل داجو وتعني الحامي أو المحافظ أو الراعي، وفي لغة الفور أخذت هذه الكلمة معنى قائد، وقد أرسل إليه الخليفة ومنعه من أن ينادي بهذا الاسم وكتب له قائلاً: «اسمك عثمان واسم والدك آدم»، رسالة بتاريخ ١٤ صفر ١٣٠٤ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٨٨٦ م، مهدي ١١/١.

حمدان أبو عنجة

حمدان بن حميدان، الذي اشتهر باسم ابنته عنجة، نشأ وترعرع في كنف عائلة الخليفة عبد الله. كانت أمه منضلية أما أبوه فمن قبيلة البرقو وكان قد نشأ مع الشيخ محمد الذي اعتقه فيما بعد. انضم في شبابه لقوات الزبير^(١) عند إغاراته على الرزيقات، فأبلى بلاءً حسناً إلى جانب الزبير وقتل عدداً كبيراً من الرزيقات حتى سقط أسيراً وحكم عليه مذبو^(٢) على، انتقاماً منه، بأن يحمل حملاً ثقيلاً ويسير به لمسافات طويلة، وعمل على إذلاله بشتى الطرق، فهو لا يحتمل أن يقتل أبو عنجة العبد المعتوق أفضل رجاله وأنجمعهم، بيد أن أبا عنجة تمكن من الفرار والانضمام لسليمان بن الزبير^(٣) فقاتل معه في كل حملاته وبقي معه حتى قبل سليمان الاستسلام، ففارقه حمدان حيثئذ ولحق بربيع فضل الله^(٤) وظل معه حتى سمع خبراً مدوياً، وهو أن المهدي، الذي طال انتظاره ووضع أهل الغرب فيه كل آمالهم، قد ظهر بالجزيرة أبا.

انطلق أبو عنجة يرافقه الزاكي طمل وبعض رفاقهما يغون اللحاق بالمهدي، وأثناء سيرهم التقوا بيمعقوب بن الشيخ محمد بن علي الكرار يصحبه أهله، وقد كان كذلك في طريقه نحو المهدي. ثم قابلوا محمد أحمد وهو في طريقه إلى قدير، فبايعوه حتى الموت. وكانت بيعة التزم بها أبو عنجة وكل أهل الخليفة عبد الله طوال حياتهم.

كان أبو عنجة من أعظم أمراء المهديّة، هذا إن لم يكن أعظمهم إطلاقاً.. وقد كان طويل القامة، أسود اللون، اشتمل رأسه شيباً وكذا لحيته نتيجة لبلائه في الحروب، وكان يرتدي دوماً ملابس حمراء اللون، وقد عرف بين الجميع بأنه محارب بارع وصائد أفيال متمرس. هذا وقد توافرت فيه كذلك صفات أهله لقيادة الرجال، الشيء الذي جعله محبوباً بين جنوده، مطاعاً فيهم، يواجهون المستحيل وهم تحت قيادته. لقد كان هو قدوتهم، وكان عادلاً، ذا بأس شديد، صارماً حازماً في كل ما يتعلق بنظام قواته، ولكن طيبة قلبه وفهمه للطبيعة البشرية كانا يخففان من قسوته. كان حمدان مؤمناً إيماناً مطلقاً بالإمام المهدي وكان يكن ولاء للخليفة عبد الله وإخلاصاً شديداً مصحوباً بمودة عميقة، فقد كان الخليفة بالنسبة

إليه هو ظل الله على الأرض، وهو الملجأ والملاذ في محن الدنيا ومصاعبها وهو الذى يكون الدليل يوم القيامة لأولئك الذين تركوا الدنيا واستجابوا لندائه، لقد كان حمدان فى طاعته تجسيدا حيا لأمر المهدي، والخليفة من بعده. كان لهما كالجنازة بين يدي غاسلها.

تميز أبو عنجة، كذلك، بصراحته، وأمانته، و إخلاصه لكلمته، فمضى وعد وعداً التزم به . ولقد كان، باختصار، ذا جرأة تفوق حد الوصف، وحزم لا يتزعزع، وصبر عند الملهمات وقد جعلت له كل هذه الصفات مكانة خاصة لدى الخليفة عبد الله.

عند حصار الأبيض، عام ١٨٨٢م، قرر المهدي، استجابة لنصيحة الخليفة، استعمال الأسلحة النارية. وقد كان المهدي، إقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يستعمل سوى الأسلحة البيضاء ويحتفظ بالأسلحة النارية التى حصل عليها فى مختلف المعارك فى قدير. وقد أقنعه الخليفة بأن للزمان قد تغير، ونصحه بتكوين راية تضم بعض الجنود السابقين وأغلبهم من قبائل جنوب السودان الذين كانوا قد عملوا فى صفوف الجيش التركى قبل أن يأمرهم الأنصار ونصحه كذلك بأن يمهّد بقيادة هذه الراية لحمدان أبى عنجة.

كان أبو عنجة يتمتع، فى الواقع، بمعرفة تامة بفنون القتال، يجيدها بمهارة نادرة، ويعرف كيف يستخدمها مستفيداً من الظروف والبيئة وأخطاء العدو وكان خبيراً كذلك بحرب العصابات وحيلها، وملماً بطرق الحرب المكشوفة. وهكذا تولى أبو عنجة قيادة الجهادية، فملك زمام أمرهم بين يديه ولم يحدث، طوال حياته، أن تمرد جنده عليه، بل كانوا يطيعونه طاعة تامة.

يحكى أن أبا عنجة عندما تحرك إلى الجهة الشرقية أمر الجهادية بترك النساء والأطفال خلفهم، فأطاعه الرجال على مريض، ثم جمع الأمير النساء وأعطاهن كميات كافية من الذرة والملابس وبعض المال لتغطية نفقاتهن أثناء غياب أزواجهن، مؤكداً لهن أن غيابهم لن يطول، فأطعن أمره. وتحرك أبو عنجة برايته، وبعد قليل لحقت به النساء واعترضن طريقه محتجات على هجرهن، فقال لهن الأمير الذى أخذ يستشيط غضباً:

— ألم أعطكن ما يكفى لتأمين حياتكن من طعام وكساء، أثناء غيبة الرجال التى لن تطول ياذن الله؟

— فأجابته النساء:

- نعم، بارك الله فيك على فضلك وكرمك فسامل حمدان:

- ولماذا الشكوى إذا؟ أرجمن ولا تمعلن سير الجيش. فتها من بينهن، ثم تقدمت أكثرهن جرأة وأمسكت بلجام حصان الأمير وقالت له:

- سيدى، نحن لسنا بحاجة إلى طعام ولا كساء ولكننا نحتاج إلى هذا وأشار إلى بطنها، موضحة ما ترغب فيه هي ورفيقاتها، فانفجر أبو عنجة ضاحكاً وقد ذهب غضبه وقال لها:

- لتهدئة ظمأكن، سخن الماء وضعنه على المكان المطلوب. ولكن المرأة هتفت قائلة:
- هذا يزيدنا عطشاً بدلاً من أن يخففه.

فازداد أبو عنجة ضحكاً وقد انهزم أمام هذه الصراخ، وسمح للنساء بمرافقة الجيش. ورغم أن وجود النساء كان يسبب عدداً من المشاكل للجيش، بيد أن أبا عنجة كان يدرك أن الرجال ، سيقاثلون بصورة أفضل عندما يكون عليهم أن يحموا نساءهم وهن يراقبنهم أثناء المعركة^(٥).

فى شيكان ظل أبو عنجة يناوش جيش هكس ومنعهم من الوصول إلى موارد المياه، مضيقاً الخناق باستمرار على أجنحة جيشهم. وعند وصول المهدي إلى سهل شيكان فى الرابع من نوفمبر ١٨٨٣م قام أولاً باستعراض جميع الرايات وخطب فى المقاتلين فوعظهم ووعدهم بالنصر. ثم أقام معسكره وقد أجل المعركة إلى اليوم التالى. ولم تتوقف المناوشات بين جيش العدو وجيش الأنصار. هاجم أبو عنجة أحد أرباعهم وأصيب حصانه بجرح قاتل فسقط تحته، فتخلص أبو عنجة بسرعة من ركابه، وانطلق شاقاً طريقه بحد سيفه وسط الأعداء فاستولى على حصان بعد أن قتل صاحبه وواصل القتال حتى انسحب العدو إلى زريته بلا نظام. اتخذ حمدان عند ذلك موقفاً أمام الزرية وقسم رايته إلى ثلاث مجموعات فوضع إحداها على يمين الزرية والأخرى على يسارها والثالثة أمامها، وكل مجموعة تحت قيادة أحد الأمراء ، كما وضع بعض القناصة على رؤوس الأشجار المحيطة بالزرية^(٦).

وعند الفجر عقب أداء الصلاة، أعطى المهدي الإشارة ببدء المعركة . قام الأمير عبد الرحمن النجومى الذي أوكل له المهدي قيادة الجيش بتوزيع الرايات فى شكل دائرة حول جيش العدو. أما أبو عنجة الذي كان طوال الليل يطلق النار على كل من يتحرك داخل الزرية

فقد هاجمها واستولى عليها فدارت المعركة وانتهت فى أقل من ساعة، وأبىد خلالها الأعداء إبادة تامة.

أرسل المهدي بعد ذلك حمدان أبا عنجة وعبد الرحمن النجومي إلى جبال النوبة التى ظلت تظهر شيئاً من العداء لدعوته وخاصة سكان جبل الداير. قاد الأميران جيشهما وغادرا الأبيض، وكانت مهمتهما الأولى هى دعوة سكان تلك الجبال للإيمان بالمهدية وأن يردوا كل ما سلبوه من القبائل المجاورة لهم، فإن رفضوا فعليهما مقاتلتهم حتى يستسلموا.

وقد كان سكان جبال النوبة المحتمين بجبالهم لا يعرفون ديناً ولا قانوناً، ويغيرون باستمرار على السهل فيسلبون البهائم ويسبون النساء، ولم تتمكن أى سلطة من إخضاعهم، فقد قاوموا قوات الحكومة التركية مثلما قاوموا قوات المهدية. وقد تبع القليل منهم المهدي بإخلاص، وظلوا يتحدون الجيوش المرسلة عليهم ويسخرون منها وهم محتون بجبالهم التى كانت حصناً طبيعياً منيعاً لهم.

أرسل أبو عنجة لهم انذاراً، فظاهروا بالاستسلام، ولكنهم كانوا يسعون لكسب الوقت حتى يهاجموا الأنصار. اكتشف أبو عنجة خيانتهم فانذرهم للمرة الأخيرة ثم هاجمهم وهزمهم، وحصل الأنصار على عدد من الأسرى والكثير من الغنائم التى أرسلوها للمهدي. وخضع النوبة عندئذ للمهدي ورجعوا بأسرهم إلى جبالهم. ولكنهم خانوا الأنصار بمجرد رجوعهم ولجأوا إلى بطن الجبال. فتبعهم أبو عنجة وود النجومي، وبعد مسيرة شاقة وسط دروب وعرة مليئة بالمخاطر تمكن الجيش من الوصول إلى قمة جبل تلجى الذى احتذى به المتمردون، وكان على رأس الجيش أبو عنجة، وود النجومي على مؤخرته وهاجم أبو عنجة فى الحال. ودارت معركة عنيفة. ودوى الرصاص فيها من الجانبين. بقي وود النجومي فى المؤخرة للقضاء على الفارين، فهاجمته مجموعة من النوبة الذين كانوا يكمنون فى طريق الجيش من الخلف، إذ كانوا قد تركوا الجزء الأكبر من الجيش يمر وانقضوا على المؤخرة. وكانوا يريدون أن يقضوا عليها ثم يأخذوا أبا عنجة على غرة من الخلف. ولكنهم لم يضرعوا فى حسابهم بقظة وود النجومي ومقدراته القتالية فقد شكل مربعاً فى الحال وتمكن هو وجنوده بسيوفهم وحراهم من هزيمة المهاجمين، وأجبروهم على الفرار، ثم انضم وود النجومي لأبى عنجة الذى استولى على حصون النوبة بعد أن قتل زعيمهم، ثم أرسل الأحياء الذين استسلموا إلى المهدي. وفى هذه الأثناء جاء أمر المهدي إلى أبى عنجة أن يلحق به فى

الرهء. فترك أبو عنجة الجيش تحت قيادة النجومى فاصداً الرهد ومعه بعض رفاقه. ثم أمره المهدي بالرجوع إلى جبال النوبة ودعوة كل الذين استسلموا للهجرة إليه بأسرهم وأموالهم. وأن يقاتل كل من لا يستجيب أمره^(٧).

انطلق أبو عنجة لتنفيذ أمر المهدي. ووجد معارضة شاملة وتمرداً من النوبة الذين رفضوا مغادرة جبالهم وتحصنوا بها وكثفوا من هجماتهم وزادوا مكانهم ضد الأنصار. فقاتلهم أبو عنجة والنجومى بلا توقف ولا هوادة قفضاً على مكانهم وحصداهم في مخابهم.

لقد سادت روح من التفاهم التام بين القائدين. فقد كانا كلاهما مؤمن مخلص للمهدية، وكانا صنوين في الشجاعة، يتمتعان بموهبة فطرية في فنون القتال، وعلى الرغم من اختلاف أصلهما ومكانتهما الاجتماعية فقد جمع بينهما احترام مشترك، وقد جعلت منهما زمالة السلاح وصفاء القلوب من التنافس والحسد صديقين حميمين، فأزالا الفوارق بين عبد الرحمن النجومى السيد الجعلى الذى يفخر بنسبه العربى، وبين حمدان أبى عنجة المنحدر من عبيد المنضلة. وقد قوت الأخطار التى خاضها معاً من عري هذه الصداقة فلم تنقطع قط. وقد ظل حمدان حتى موته يتبادل الهدايا مع عبد الرحمن النجومى. فشهد ماتبادلاً من أسلحة وخبول على عمق العلاقة فى قلب الصديقين وقد أخذ أحدهما يزحف شمالاً نحو مصر بينما اتجه رفيقه شرقاً إلى الحبشة.

صمد النوبة فى قتالهم للأنصار، كانوا يقتلونهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وظل القائدان فى حالة استعداد دائمة، تارة فى مقدمة الجيش وتارة فى مؤخرته، كان حمدان وعبد الرحمن النجومى يستعملان كل الحيل الحربية ويستفيدان من الامكانيات الضئيلة التى توفرها لهما أرض المعركة محاولين التنبؤ بتحركات العدو وخططه.

بدأ المهدي حينئذ زحفه نحو الخرطوم. ولكى يقضى على أمر التمرد بجبال النوبة، أرسل قوة لدعم أبى عنجة وود النجومى بقيادة موسى ود حلو الذى اشتهر، رغم تقدمه فى السن بشجاعته وخبرته بفنون القتال. فانضم لأبى عنجة وود النجومى وتمكن ثلاثتهم من إخضاع سكان جبل الدابر وحلفائهم لبعض الوقت. وكان يمكنهم أن يواصلوا تهديده الجبال لولا أنه جاءهم أمر المهدي يلزمهم بإحراق معسكرهم واللاحاق به فى الحال بالرهء^(٨).

وصل أبو عنجة مع جيش المهدية إلى أبى سعد حيث أقام المهدي معسكره. وعلى حين

حاصر النجومي الخرطوم، قام أبو عنجة بمحاصرة قلعة أم درمان التي كانت تحميها كتيبة مصرية وقد حاولت عدة مرات الهروب والانضمام لفرقون إلا أن أبا عنجة كان يحكم حصاره أكثر فأكثر. وكل محاولة لخروج الحامية كانت تكبد الطرفين خسائر فادحة. ونتيجة لنقص الطعام والذخائر طلب فرج الله راغب، قائد الحامية، الاستسلام ، فبايع الضباط والجنود المهدي وضُمو للجيش^(٩).

عقب فتح الخرطوم، أرسل المهدي حمدان أبا عنجة إلى جبال النوبة التي ثارت مرة أخرى. غادر حمدان أم درمان في جمادى الأولى ١٣٠٢ هـ فبراير ١٨٨٥م بعد شهر من فتح الخرطوم. ووصل أولاً لجبال تغلي التي كانت في حالة تمرد شامل وعاد سكانها إلى أعمال النهب والسلب، فدعاهم أبو عنجة إلى الاستسلام أولاً، وعندما رفضوا قاتلهم حتى هزمهم ، ثم أخذ في تهذية الأوضاع شيئاً فشيئاً في جبال النوبة.

ونما إلى علم أبي عنجة بعد ذلك أن الجنود السود، الجهادية، كانوا قد ثاروا في الأبيض عقب ذهاب العامل محمود عبد القادر إلى أم درمان لمبايعة الخليفة عبد الله، وأنهم قتلوا معظم العرب الذين تركهم العامل بالمدينة وأنهم احتموا بعد ذلك بجبال النوبة. وبمجرد أن علم العامل محمود عبد القادر بهذه الأنباء سارع إلى الأبيض وتعقب المتمردين، وعندما وصل إلى مكانهم طالبهم بالانصياع لأمره وأمام رفضهم قام بمهاجمتهم، فاستشهد محمود وعدد كبير من رجاله وتمكن الباقون من النجاة والرجوع إلى الأبيض.

عندما علم أبو عنجة بهذه الأحداث ، انطلق مسرعاً إلى المكان الذي لجأ إليه المتمردون ووعدهم بالعفو إن هم وضعوا السلاح واستسلموا، وأمام عنادهم وإصرارهم على العصيان، هاجمهم أبو عنجة، فجاء بعضهم مستسلمين، بينما واصل الباقون القتال حتى أيّدوا عن بكرة أبيهم ، وقطع حمدان رؤوس قادتهم وأرسلها إلى الخليفة الذي أمر بعرضها في السوق، ثم دفنت بعد ذلك.

كلف الخليفة حمدان أبا عنجة بإدارة الأبيض حتي يعين عليها عاملاً جديداً، وغادر أبو عنجة جبال النوبة لفترة موقتة فأتى إلى الأبيض التي حكمها حتى وصل عثمان آدم، ورجع أبو عنجة إلى جبال النوبة مواصلاً جهوده في تعزيزه السلام.

في بداية عام ١٨٨٦م، بعد أن استنفد محمد خالد زقل كل حججه، تحرك ببطء نحو

الخليفة لحياته فكاتب الخليفة سراً إلى حمدان طالباً إليه مغادرة جبال النوبة وملاقاة محمد خالد زقل قبل خروجه من كردفان وأن يطلب إليه تسليم قوات الرايتين الزرقاء والخضراء اللتين يتكون منهما جيشه بالإضافة للجهادية بأسلحتهم وذخائرهم. فإن رفض الأمر فعلى أبي عنجة أن يقبض عليه ويقيده بالسلاسل ويرسله إلى أم درمان تحت حراسة مشددة^(١١).

قابل أبو عنجة محمد خالد في الأبيض، وأمام رفضه الاستسلام قبض عليه وحبسه في سجن الأبيض لمدة ستة أشهر قبل أن يرسله إلى الخليفة. وقبل أن يغادر أبو عنجة الأبيض إلى جبال النوبة إثر انتهاء مهمته، لم ينس أن يأخذ بثأره من مادبو زعيم الرزيقات، هذا الذي أذله وأهانته في الماضي. وقد أرسله إلى أم درمان مع ابني كركساوي. وخوفاً من أن يعفو عنه الخليفة فقد كتب حمدان طالباً إلى الخليفة إعدامه، ثم اعتذر عن طلبه هذا فيما بعد. كتب الخليفة إلى أبي عنجة يشكره على حسن صنيعه وأشاد بتوقعه لحكمه^(١٢). أما مادبو فقد صاح وهو في طريقه لتنفيذ عليه حكم الإعدام قائلاً لأبي عنجة:

- ليس أنت أيها العبد الحقير الذي تقتلني، لكن هو الله، وأنا لا أتضرع لك بالرحمة ولكنني أطالب بالعدل وليس من الممكن أن يصبح عبد مثلك يوماً شريفاً، فأنا مادبو وكل القبائل تعرفني^(١٣). وعاد أبو عنجة إلى جبال النوبة بعد أن انتقم لنفسه.

وأمره الخليفة في نوفمبر ١٨٨٦م بالتنسيق مع ود النجومي الذي كان في دنقلا ليواجه معاً ترمز الكباشيش في الجبهة الشمالية الغربية. وقد صدرت أوامر صارمة لقبائل المنطقة تمنعهم الاتصال بالكباشيش وتمنع تزويدهم بالمؤن أو مساعدتهم. وبقي أبو عنجة مواصلاً عملياته الحربية حتى إبريل ١٨٨٧م حين استدعاه الخليفة إلى أم درمان من أجل إرساله إلى الجبهة الشرقية. عندئذ غادر أبو عنجة جبال النوبة آخذاً معه كل قواته بعد أن أخضع الجبال، هذا إن لم تكن قد هدأت تماماً. وتركها تحت إدارة عثمان آدم، عامل كردفان.

وقد جمع بين عثمان آدم وأبي عنجة ود مشترك يضاف إليه احترام وتوقير من قبل العامل الشاب تجاه أبي عنجة الذي يكرمه سنأ. وكان عثمان آدم عندما يواجه مسائل عسيرة أو شائكة يلجأ لأبي عنجة لاستشارته. واستمرت مراسلاتهما حتى وفاة أبي عنجة. وقد تبادل أبو عنجة الهدايا مع عثمان آدم كما كان يتبادلها مع ود النجومي. وقد تحدث عثمان آدم في رسائله للخليفة عدة مرات عن حصان أسود أهده له أبو عنجة، وقد احتفظ به حتى مرض الحصان ومات، فكاتب رسالة حزينة إلى الخليفة يتحدث فيها عن فقدانه لهدية والده

أبى عنجة. وكتب له الخليفة معزياً^(١٣)، وكانت تلك آخر رسالة من عثمان آدم قبل أن تخطفه يد المنون.

وصل أبو عنجة إلى أم درمان في نهاية أبريل ١٨٨٧م وأعد له الخليفة استقبالاً حافلاً، وأقام معسكره جنوب أم درمان. أقيمت عرضة كبيرة شاركت فيها القوات المربطة بأم درمان، وظهرت فيها قوات أبى عنجة وهي تخطر تحت رايتها فى نظام تام. ومكث أبو عنجة فى أم درمان لبعض الوقت ثم غادرها في نهاية سبتمبر متجهاً إلى جبهة الحبشة.

قام الخليفة بمرافقة الجيش إلى خارج أم درمان كعادته حتى عبر النيل وخطب فى الجنود واعظاً ومذكراً بتعاليم الإسلام، ودعا الله أن ينصرهم بعد أن أمرهم بتقوى الله وخشيته ثم ودع أبا عنجة وعاد أدراجه إلى أم درمان. وزع أبو عنجة جيشه إلى عدة وحدات تحت قيادة وكلائه حتى لا يتزاحم الجنود حول موارد المياه. وقد كان الناس يستقبلونه جيشاً حل بالترحيب والتوقير، وكان كل من يأتى إليه متظلماً يصدر عنه راضياً بحكمه. وقد كان فى عام ١٨٨٥م يعلم الناس أمور دينهم فى جبال النوبة، فنال رضا المهدي بذلك، وفعل الشيء نفسه وهو فى طريقه إلى الشرق.

كان أبو عنجة يتمتع بإيمان عميق وبحب مصاحبة علماء الدين والفقهاء، وعندما يكون فى أم درمان يلزم مجالسة الشيوخ ويتابع دروسهم فى تواضع جم. كما كان شديد الحرص على التزام جنوده بواجباتهم الدينية، ويعاقب فى الوقت المناسب كل من يقصر فى أداء الصلاة أو غيرها من فرائض الإسلام.

كان أبو عنجة آخر من غادر الجزيرة مع بقية جيشه. وكان قد أرسل، بأمر من الخليفة، بعض الوحدات بقيادة عبد الله إبراهيم^(١٤) والزاكى طمل لإخماد تمرد قبائل رفاعة الهوى. وقد لحقت به هذه القوات عقب هزيمة تلك القبائل، فأرسلها إلى القصارف التى وصلها هو نفسه فى نوفمبر ١٨٨٧م. وبقي لعدة أيام فى القصارف ثم غادرها متجهاً إلى القلابات. ووجد جيشه كله فى عطرب على بعد عدة أميال من القلابات، فقاد الجيش ودخل المدينة بعد ساعات قليلة حيث استقبله يونس الدكيم^(١٥) الذى كان عاملاً على القلابات، والذى كان على حمدان أن يتولى معه إدارة الجيش والمدينة.

وعقب استعراض قواته، أقام أبو عنجة معسكره فحدد لكل قبيلة تحت راياتها مكاناً محدداً

ونظم الحياة فى المعسكر الذى سادت فيه روح الدقة والنظام.

وكان أبو عنجة يرعى كل شىء ويسهر على راحة قواته المادية والروحية ، إلا أن الخلافات لم تلبث أن أطلت برأسها بينه وبين يونس الديكيم.

بمجرد وصول أبى عنجة إلى القلايات، ووجه بقضية دينية، حيث إن تكرورياً يدعى آدم محمد البرقاوى وينضوى تحت إحدى رايات الغرب، قد ادعى أنه نبي الله عيسى وقد آمن به عدد من الرجال والأمراء من قبائل تامة والبرقو والمناطق المجاورة لهم. وقد ورد فى السنة أن ظهور نبي الله عيسى يعقب ظهور المهدي. ولم يتمكن يونس الديكيم من القضاء على هذه الفتنة سواء أكان ذلك ضعفاً منه أم كان تعاطفاً مع تلك الدعوة.

وما كاد أبو عنجة يصل إلى القلايات حتى قام بسجن مدعى النبوة ووكيله وكون محكمة لاستجوابهم. ثم كتب، هو ويونس الديكيم معاً، إلى الخليفة يطلبان حكمه فى أمر هذا الدجال ومن تبعوه، ولم يتأخر رد الخليفة: الموت للجميع.

ثم راجع الخليفة حكمه وأرسل بعد ثلاث ساعات من خطابه الأول، خطاباً آخر إلى أبى عنجة يأمره فيه بإعدام آدم محمد ووكيله فقط، وسجن الأمراء الذين تبعوه. ولكن عند وصول الرسول الثانى وجد أن أباعنجة قد أعدمهم جميعاً أمام الجيش، واعتذر للخليفة عن ذلك فيما بعد ^(١)، فرد عليه الخليفة حامداً له طاعته لأمره واهتمامه بوقف انتشار الكفر وسط الجيش.

تمكن أبو عنجة من تهدئة النفوس وتنبه رجاله إلى الحذر من ظهور أى انحراف يمكن أن يضللمهم ويبدل إيمانهم وذكرهم بما حدث لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وظهور أدعياء النبوة، ودعاهم للإلتزام المطلق بأوامر الخليفة عبد الله وترك أمر قيادتهم له، لكى يتألوا رضا الله ونبيه ومهديه.

استعد أبو عنجة بعد ذلك للزحف نحو الحبشة. بيد أن الخلافات التى ظهرت منذ وصوله، بينه وبين يونس الديكيم كانت قد تفاقمت وأصبحت عداوة معلنة من قبل يونس ورفضاً لطاعة أبى عنجة. وكان الخليفة قد قال له بوضوح رغم أنهما يحكما معاً، إلا أن اتخاذ القرار يرجع إلى أبى عنجة وأن على يونس أن يطيعه ويعينه وبأخذ برأيه فى كل الأحوال. فقائد الحملة بالفعل هو أبو عنجة. إلا أن يونس الديكيم لم يتمكن من قبول ذلك. فقد كان أبو عنجة فى نظره هو ذلك العبد الذى اعتقه الشيخ محمد بعد أن تربى فى داره. فكيف له، وهو يونس الديكيم،

التعاضى الحر أن يخضع ويذل طاعة لمولى من الموالى، وكان يعامل أبوعنجة باحتقار ووقاحة ولا يأبه لأوامره.

كتب حمدان أبوعنجة إلى الخليفة يصف سلوك يونس والضرر الذى يمكن أن يلحقه بقيادته، وتذكر بكلمات حزينة التوفير والإحترام الذى كان يحيطه به عثمان آدم والذى لم يتحول عنه قط. وأخيراً طلب من الخليفة أن يسمح له بإقامة معسكره في الصراف حتى يكون بذلك بعيداً عن يونس^(١٧).

منعه الخليفة من ذلك بعد أن كان قد سمح له، فقد كان يحب أن تظل القيادة موحدة، وحمدان أبوعنجة وحده هو القائد العام لجيش القلابات ويونس هو مرؤوسه ويجب عليه أن يطيعه^(١٨). وكتب الخليفة خطاباً حاداً إلى يونس الدكيم مذكراً إياه أن المرء عند الله بإيمانه وعمله لا بجاهه وحسبه. وأمره مرة أخرى بحسن التعامل مع أبى عنجة وطاعته، ثم دعاه بعد ذلك إلى أم درمان وضمه إلى ملازميه.

وأصبح أبوعنجة بعد ذلك وحده وتمكن من الإعداد لحملة الحبشة بهدوء. وغادر القلابات فى التاسع من يناير ١٨٨٨م، وقسم جيشه لأربعة أرباع وجعل على كل ربع أحد كبار وكلائه من ذوى الخبرة الذين عركتهم المعارك وعركوها وهم: الزاكي طمل وعبد الله ابراهيم وعربى دفع الله وأحمد على. وكانت هذه الأرباع تتكون من الجهادية حملة البنادق والعرب المسلحين بالرماح والسيوف والخيالة الذين ينتمى معظمهم لقبائل البقارة على جناحي الجيش، وفى الوسط يسير أبو عنجة وسط ملازميه.

غادر الجيش القلابات وشق الجبال التى تفصل البلدين. ويعطينا حمدان أبوعنجة وصفاً أخذاً لرحلتهم المذهلة عبر المنحدرات الوعرة وما يحيط بها من هرات عميقة لا حد لها. واستمر الزحف لعدة أيام وسط صعوبات جمة.

ووصلوا أخيراً إلى السهل والتقوا بالعدو عند دومبيا، ودارت معركة عنيفة، كانت الغلبة فيها للأنصار بعد عدة ساعات من القتال وهرب الأحباش بلا نظام تاركين خلفهم الكثير من الغنائم.

واستمر أبوعنجة فى زحفه من غير أن يقابل العدو حتى وصل إلى غندار التى دخلها بلا قتال وبقي بها لعدة أشهر منتظراً العدو الذى لم يظهر له أثر. ثم رجع إلى القلابات.

ثم قام بحملة أخرى فى يونيو من نفس العام، ومرة أخرى انتظر ظهور الأحباش ولكن بلا جدوى، فقام بعد ذلك بحرق بعض الكنائس والأديرة وعاد أدراجه إلى القلايات.
كتب الامبراطور يوحنا الرابع إلى أبى عنجة طالباً السلام، فرد عليه أبوعنجة :
- ادخل فى الإسلام أولاً، ثم لتحدث بعد ذلك عن السلام^(١٩).

وأنار هذا الرد غضب يوحنا، فتخلى عن فكرة السلام وقرر الزحف إلى القلايات ثم مطاردة الأنصار حتى أم درمان التى كان يحلم بتدميرها.

بدأ أبوعنجة فى الاستعداد للحرب مرة أخرى، وفى هذه الأثناء استدعاه الخليفة إلى أم درمان ، فجاءها ومعه عدد من أمراته ورجالهم. فأعد لهم الخليفة استقبلاً رائعاً حاراً. وكان تشييد قبة المهدى قد بدأ، فكان أبوعنجة يحضر كل صباح للمشاركة فى البناء^(٢٠). ويقضى بقية وقته، عندما لا يكون مشغولاً بالشؤون العسكرية. بين يدى الشيوخ يرتشف من معين العلوم الإسلامية^(٢١).

وكان عليه أخيراً أن يفادر أم درمان، وصحبه الخليفة حتى خرج من المدينة ثم ودعه ودعا له أن يحميه الله تعالى هو ورجاله وأن يكتب لهم النصر، ثم احتضن الخليفة أباعنجة للمرة الأخيرة ورجع إلى أم درمان منقبض الصدر تكتنف قلبه مشاعر غامضة.

إثر عودته إلى القلايات، شرع أبوعنجة فى تحصين المدينة وتقوية حصونها. ثم أصيب فجأة بالحمى، واستعمل لعلاجها الأعشاب التى كان يستعملها عادة، وربما أخذ جرعة زائدة أو إن جسمه قد أنهك بفعل المشاق والعمر^(٢٢) فتوفى فى التاسع والعشرين من يناير ١٨٨٩م وبكاه الجميع: من أمراء وجنود وبكاه سكان القلايات وما حولها. وفجع الجميع فيه كأنما فقد كل منهم أقرب الناس إليه.

وجاءت الخطابات من كل أنحاء السودان من أمراء الرايات ومن زعماء الجهادية، من المقاديم والموالى إلى الخليفة يتحدث عن الفقد العظيم فى أبى عنجة بكلمات تقطر أسى فى بعض الأحيان. وكتب الجهادية الذين كانوا يعملون سابقاً تحت إمرة أبى عنجة والذين يعملون الآن تحت قيادة عثمان آدم إلى الخليفة قائلين:

«ركن الدين المحامى عن الإسلام والمسلمين حمدان أبو عنجة (...) فإنه قد دخل علينا من ذلك ما لا يكون مثله الجرح بالسلاح»^(٢٣).

ورغم أن إيمان عثمان آدم العميق جعله يقبل موت حمدان، إلا أنه لم يخف فجيعته، وقد عبرت رسالته للخليفة عن شعور بالأسى والمودة العميقة تجاه من كان يناديه «بوالدى»^(٢٤).

ومن الشمال جاء صوت ود النجومى، مثلاً للأمراء الذين كانوا معه، وهو يرثى صديقه بكلمات تفيض حزناً على فقده.

أما الخليفة فقد كان موت أبوعنجة بالنسبة له مصاباً شخصياً مثلما هو مصاب عام للدولة. لقد فقد فى أبى عنجة الصديق الوفى المخلص الذى يمهّد إليه بأسراره وأفكاره الخاصة، كما فقد فيه القائد العسكرى المهيّب فى أعدائه، المحبوب لدى جنوده، الخبير بكل تكتيكات الحروب وخطوطها.

لقد كان أبوعنجة وحده، من بين أمراء المهديّة، الذى تمكن من رفع لوائها على بلاد لم يسبقه إليها أحد. وكان أشجع أمراء الدولة هذا إن لم يكن أشجعهم على الإطلاق.

وان لم يكن لأبى عنجة أن ينال الشهادة على أرض المعركة، فإنه نال شهادة من خلعوا بدمائهم أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له.

وستظل ذكراه باقية، طالما كان هناك رجال على أرض السودان، وستتناقل الأجيال ذكراه حتى قيام الساعة وسيحتل أبوعنجة، إن شاء الله، منزله بين أصحاب النبى الذين أعطوا الإسلام هيئته وعظمة ضيائه فى العالمين.

- (١) ولد الزبير باتشا رحمة منصور عام ١٨٣٠م، واشتهر بتجارة الرقيق في بحر الغزال ويقعده لدار فور عام ١٨٧٤م، توفي عام ١٩١٣م، وهو جعلى من النعصاب.
- (٢) مادبو على، زعيم الرزيقات، انضم للمهدية في قدير عام ١٨٨٢م، وتمرد عام ١٨٨٥م على الخليفة عبد الله الذي أسر بالقبض عليه، وقد اعتقله أبو عنتجة بالأبيض عام ١٨٨٦م.
- (٣) خلف سليمان بن الزبير باتشا منصور والده بعد أن نفى الأخير إلى مصر، وقد دفعته الإقامة الجبرية التي فرضت على والده. وإجراعات محاربة تجارة الرقيق التي فرضها الإنجليز إلى الثورة على سلطة غردون وقته جيسى باتشا عام ١٨٧٩م.
- (٤) ولد رابع فضل الله المشهور برابع الزبير عام ١٩٤٥م في إحدى ضواحي الخرطوم، ذهب إلى بحر الغزال وانضم لقوات الزبير باتشا، ورافق بعد ذلك سليمان، بيد أنه رفض أن يتهمه عند استسلامه، واستولى بعد ذلك على إمارات باتشا ويورنو، ثم قتله الفرنسيون عام ١٩٠٠م.
- (٥) ر. سالمون.. The Story of Sheikh Abdullah Ahmed Abu Gelaha قصة الشيخ عبد الله أحمد أبو جلاهة، السودان في مذكرات ومدونات، (SNRXXI, I).
- (٦) زلفو شيكان، أبوظبي، ١٩٧٦م، ص ١٩٣ - ٢٠٢.
- (٧) إسماعيل عبد القادر الكردفاني، سيرة، ص ٣٠١ - ٣١٥.
- (٨) المصدر السابق.
- (٩) شقير، ذ.س، ص ٨٥٤ والعصمات التالية.
- (١٠) خطاب الخليفة إلى حمدان أبي عنتجة بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٣٠٤هـ / الأول من مارس ١٨٨٧م، مهدية ٢٥/١.
- (١١) شقير، ذ.س، ص ١٠٤٧.
- (١٢) خطاب الخليفة إلى عثمان آدم بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٣٠٨هـ / ٢٨ أكتوبر ١٨٩٠م، مهدية ١١/١.
- (١٣) عبد الله إبراهيم أحد أمراء الجميلين، كان يقود أحد أرباع جيش الشرق تحت قيادة حمدان أبي عنتجة والزكي طحل، ثم أحمد على وقتل بجانبه في عام ١٨٩٣ في معركة أقوردات.
- (١٤) أحد أمراء النعاشة، كان عاملاً على الجزيرة والقلايات من عام ١٨٨٥م إلى ١٨٨٧م ثم عاملاً على دنقلا وبربر من ١٨٨٨م إلى ١٨٨٩م عاش بعد المهدية، حيث أسر في أم ديكرات وأرسل إلى ربيد ثم عاد إلى السودان واستقر في لم درمان حتى عام ١٩٣٦م.
- (١٥) خطابات من حمدان أبي عنتجة ويونس الديكم بتاريخ ١٦ ربيع الآخر ١٣٠٥هـ / ١ يناير ١٨٨٨م. وخطاب آخر بتاريخ ١٨ ربيع الآخر ١٣٠٥هـ / ٢ يناير ١٨٨٨م، مهدية ٢٦/١.

(١٦) خطاب حمدان أبي عنجة إلى الخليفة بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٣٠٥هـ / ١٩ فبراير ١٨٨٨م ، مهنية ٢٦/١.

(١٧) المصدر السابق، ٩ جمادى الآخرة ١٣٠٥هـ / ٢٢ فبراير ١٨٨٨م.

(١٨) نسخة من خطاب حمدان أبي عنجة إلى يوحنا الرابع في جمادى الأولى ١٣٠٦هـ / يناير ١٨٨٩م.

(١٩) جهاد ، ص ١١٦.

(٢٠) يوسف ميخائيل ، ذ. ص، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢١) هناك عدة روايات تدور حول موت أبي عنجة، فبعض البعض أنه مات مسموماً بفعل جارية حبشية. ويتهم يوسف ميخائيل الخليفة بقتله، زاعماً أنه قد أرسل له جارية في صحبة امرأة عجوز هي التي وضعت له السم.

ويزعم آخرون أن حمدان قد مات متحرراً، وكل هذه الآراء قد جانبتها الصواب ، فقد كان الناس في ذلك العهد ذوي إيمان عميق بمتهمهم من الانتحار. كما إن حمدان أبا عنجة كان قائداً عسكرياً مدركاً لمسؤولياته ولا يمكنه أن يتحرر قبل هجوم الأحباش على جيشه. وكذلك أخطأ ميخائيل في زعمه، فقد كان الخليفة شديد الثقة في حمدان، الذي كان بدوره طوع بنان الخليفة، وقد كان بالنسبة له بالفعل كالحنازة بين يدي غاسلها ، ولو كان ما ذكره صحيحاً لتلقفه سلاطين وأوروالدر وفوزي باشا وذكروه بكل سرور.

(٢٢) خطاب مقادير الجهادية ، رؤوس المية ، يحمل ستة وخمسين اسماً، إلى الخليفة بتاريخ ٤ رجب ١٣٠٦هـ / ٦ مارس ١٨٨٩م.

(٢٣) خطاب عثمان آدم إلى الخليفة بتاريخ ٤ رجب ١٣٠٦هـ / ٦ مارس ١٨٨٩م.

عبد الرحمن النجومى

« لا والله لا أرجع إلى الورا إلا محمولاً على الأكثاف . ماذا إذا عطشنا أو جعنا، فإنما نحن في جهاد، فلتتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر أو بالشهادة... » نطق ود النجومى بهذه الكلمات وهو يلوح بسيفه فوق رأسه وينظر إلى الحضور بعينين غاضبتين يتطاير منهما الشرر، فكان أن تحمس أولئك الذين كانوا في حالة تردد أو كانوا يتحدثون عن التراجع وانتظار الإمدادات التي أرسلها الخليفة، فعندما يكون القتال من أجل إعلاء كلمة الله فلا مجال للتراجع أو التردد، لأن الجزاء سيكون الأجر في العالم الآخر، فكل أولئك الذين ماتوا من أجل نصرة دعوة الإسلام تحت راية المهدية واثقون من أنهم سيدخلون الجنة. وماذا تعنى الغنائم وفتح الأراضي المصرية نفسها لمن يتوقون لنعيم الجنة وملاقة الحور العين، لقد عاهدوا قائدهم عبد الرحمن النجومى، وهم يلوحون بسيفهم، على القتال خلفه وطاعته في زحفه لفتح مصر بأمر الخليفة عبد الله بن محمد خليفة المهدي.

كان عبد الرحمن النجومى من قبيلة الجعليين، فرع العبدلاب، وكان أبوه النجومى قد ترك قريته مونهيس القرية من شندى في عام ١٨٢٣م فاراً من حملة الدفتردار الانتقامية^(١) ضد الجعليين لقتلهم صهره اسماعيل باشا . لجأ النجومى إلى حلة الخوجلاب شمال حلغاية الملوك وتزوج حفيدة الشيخ خوجلى^(٢) فأنجبت له عبد الرحمن الذى نشأ وترعرع في حلة الخوجلاب ودخل خلوة جده حيث حفظ القرآن عن ظهر قلب ثم واصل دراسته على الشيخ محمد شريف نور الدائم^(٣) بصحبة محمد أحمد ، وكان قد اشتهر بلقب «فكى» عندما ترك الخلوة ليساعد والده الذى كان تاجراً متجولاً يعمل في تجارة العاج وريش النعام . استقر عبد الرحمن في الفششوية على النيل الأبيض^(٤) بالقرب من أبا وكان حينذاك في الثلاثين من عمره، وكان رجلاً فاضلاً شديد التدين تشبعت روحه بإيمان عميق متأجج وكان ميالاً للزهد وله طاقة روحية عالية وكان قاسياً على نفسه، شديد التقشف ذا شجاعة لا تقهر وثبات أمام

المخاطر، وصبر عند الشدائد. كان إخلاصه مضرباً للمثل، كما كان راجح الرأي لا يتزحزح عن الكلمة التي يقولها وقد شهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه، وكان كذلك مشهوراً بإنصافه وبحسه العميق بالعدالة والمساواة، ومن دلائل عدله أن القبائل التي كانت تضطر للخضوع كانت ترفض التسليم للأمرء وتكتب للمهدى مباشرة طالبة التسليم له فكان المهدى لثقتة بالنجمي يعثه لها لتابعه وتسلم له.

كان عبد الرحمن النجمي من أوائل الذين آمنوا بمحمد أحمد بن عبد الله، المهدى المنتظر، حيث لحق به في أبا بعد انتهاء المعركة مباشرة في مساء يوم ١٢ أغسطس ١٨٨١م^(٥)، ثم تبعه في سيره الشاق إلى دار هجرته في جبل قدير في أطراف جبال النوبة. وصحب المهدى في كل خملاته محارباً بلا توقف وكان يقاتل ببسالة حيثما أرسله المهدى، وقد تمكن وهو يحارب على رأس رايته من وضع خطة مع الخليفة عبد الله لمهاجمة شيكان وأبادوا بفضلها جيش هكس باشا، وقد تمكن مع صنوه في المجد والشجاعة حمدان أبي عنجة من تهذئة أجزاء من جبال النوبة.

وقد عينه المهدى قائداً عاماً على قوات المهدية التي كانت تحاصر الخرطوم، وفور وصوله في يوليو ١٨٨٤م كتب خطاباً إلى غردون يدعوه فيه إلى الإسلام وتسليم المدينة وكان قد ختم خطابه بهذه الكلمات التي تفيض عزة وكبرياء: «اعلم أنني ود النجمي أمير أمراء جيوش المهدية الملقب بسيف الله المسلول وفاتح كردفان والداير وقد جئتكم الآن بجيوش لا طاقة لك بها ومدافع لا قدرة لك على احتمالها فسلم تسلم ولا تسفك دماء العسكر والأهلين بعنادك، والسلام»^(٦). ولجرائته كان أول من دخل الخرطوم عن طريق النيل ذى المسالك الخطرة، وبعد فتح الخرطوم أرسله المهدى لمحاربة الإنجليز وردهم عن شمال السودان.

كان ود النجمي في المتمة حينما انتهى إليه نبأ وفاة المهدى وكتب له الخليفة عبد الله طالباً إليه الحضور إلى أم درمان، فرجع وباع خليفة المهدى كما بايع المهدى من قبل. مات المهدى ولكن تظل المبادئ ثابتة فعلى الرغم من أنه كان أحد قادة الراية الحمراء تحت إمرة الخليفة شريف وتابعاً له إلا أنه لم يشك لحظة في شرعية خلافة الخليفة عبد الله، وكان ود النجمي قد شهد خلافاً نشب بين الشيخ المنا إسماعيل والخليفة عبد الله في اليوم التالي لفتح

الأبيض، وقف فيه المهدي بوضوح في صف الخليفة عبد الله ووضح مكانته بجلاله، وكان عبد الرحمن ود النجومي أول الأمراء الذين وقفوا بين يدي الخليفة عبد الله ليأيموه قائداً عاماً لجيوش المهدي وممثلاً للمهدي وخليفة له. تلك كانت نظرته للخليفة عبد الله ما تبدلها بغيرها قط، وعلى الرغم مما كان يشيع من وشايات وشائعات مفرضة، فما كان إخلاص ود النجومي للخليفة ليخمد، ولا كان ولاؤه له ليفتر وذلك مما كان يحفظه له الخليفة عبد الله.

فبينما أخذ الأشراف يتآمرون على الخليفة عبد الله في عام ١٨٨٥م وعندما راودت الخليفة بعض الشكوك حول ولاء محمد عبد الكريم^(٧)، عم المهدي، الذي كان يحاصر سنار منذ وقت طويل، أرسل ود النجومي لمساندته وكان عبد الرحمن مكلفاً في ذلك الوقت بصدد الإنجليز عن إقليم دنقلا فتحرك في الحال نحو سنار التي وصلها في اليوم التالي لتسليمها فوجد المدينة قد تعرضت للنهب والفسوق فأعاد الأمور إلى نصابها وحافظ على النظام حتى جاءه أمر الخليفة بتدمير المدينة تدميراً كاملاً وإجبار سكانها على الانتقال إلى أماكن أخرى، وقد أثر على المهدي قوله في سنار: «سنار في الحقيقة سوق ناره»^(٨) فهي بذلك مدينة ملعونة يجب ألا يقيم بها من يؤمن بالله ورسوله ومهديه، وسكانها أنفسهم هم غنيمة لجند الله: أنصار المهدي وخليفته. عمل ود النجومي على تنفيذ هذا الأمر وأحرق المدينة وعندما دمرت غادرها على رأس قواته إلى أم درمان حيث دعاهم الخليفة لقضاء عيد الأضحى معه^(٩). كانت طاعة الخليفة عبد الله خليفة المهدي بالنسبة لود النجومي أمراً من الله. ففي عام ١٨٨٨م عندما أرسل الخليفة ابن عمه يونس الديكيم إلى دنقلا لحسم الخلاف بين النجومي ومساعد قيدوم، قرأ ود النجومي عقب صلاة الظهر مكتوب الخليفة آمراً إياه أن يكونا كالجنائزتين بين يدي غاسلها، وفور الفراغ من قراءة الأمر نهض ود النجومي ملماً سيفه وحرته ثم نزع سكينه من ذراعه الأيسر ليضعها مع بقية أسلحته عند قدمي يونس الديكيم الذي كان جالساً بجانب المنبر فشكره يونس الديكيم قائلاً له:

- بارك الله فيك أنت ولد النجومي من أبكار المهدي عليه السلام ومن أعظم قوادنا المتصيرين - فضرب بذلك مثلاً رائعاً في الطاعة حاز به على احترام الجميع حتى أولئك الذين كانوا يحسدونه ويتآمرون للتخلص منه خفية.

كان الخليفة قد عهد إلى النجومي بقيادة الجيش المكلف بفتح مصر تبعاً لرغبة الإمام

المهدى. وجه النجومي عدة هجمات على الحاميات المصرية التي كانت تعسكر فى منطقة حلفاء، ثم حدث تنافس على القيادة داخل جيش ود النجومي ، فطلب من الخليفة أن يسمح له بالحضور إلى أم درمان حتى يعرض الموقف الذى كان فيه بدقة فاستقبله الخليفة واستمع إليه باهتمام ، فكلاهما كان يتمتع بإيمان متأجج. وكان المهدى قد وعد جيوشه بفتح العالم كما فعل رسول الله من قبل عندما وعد بالفتح وأكمله خلفاؤه. فكان الخليفة مقتنعاً بأن الأمر نفسه سيحدث وأن مصر ستسقط أولاً، على يدي النجومي وستبناها القسطنطينية وأخيراً الأراضى المقدسة فى الحجاز التى كان الخليفة مكلفاً بتطهيرها وطرد الترك المارقين على حكم ربهم منها، وكان النجومي يشارك الخليفة فى رأيه، فإما أن يرجع متصراً أو أن يموت فى سبيل الله وحتى يؤكد قناعته هذه ولكى يقضى على تردد القلوب الواجفة قام بحرق منزله فى أم درمان، ثم تحرك على رأس جيشه وصحبه الخليفة حتى كررى، وما كان مقدراً لهما أن يلتقيا مرة أخرى علي ظهر البسيطة لأن النجومي انتقل الى لقاء ربه قبل الخليفة.

كان جيشه قوياً وحسن الإعداد إلا أن المرض كان قد تفشى بين قواته بالإضافة إلى هروب بعض جنوده. لقد هزم جيش المهدى عداء القبائل النوبية والجوع والأوبئة وعدم وصول الإمدادات التى أرسلها الخليفة نسبة لبعد المسافة وتخلف وسائل الاتصال، كما كانت القبائل مستعدة للخيانة وكانت تفكر فى إيجاد وسيلة للتعاون مع الأجانب والاتصال بهم.

كان بإمكان النجومي الانسحاب والانتظار ولكنه لم يرد ذلك فقد كان محارباً فى سبيل الله وعندما يكون الزحف من أجل نصرته تعالى وملاقاة وجهه الكريم فلا مجال للتراجع حينئذ أهدأ. أعطى ود النجومي إشارة البدء فشهدت قرية توشكى^(١) المعركة الضارية التى قادها جند الله ضد الكفار من الإنجليز والمصريين وقد انضمت اليهم بعض القوات السودانية المعادية للمهدى.

كان ذلك فى الثالث من أغسطس عام ١٨٨٩م ، فاشتدت المعركة وحمل وطيسها وبينما كانت نيران العدو تحصد الأنصار كالمنجل الذى يحصد سنابل القمح، كان أحد الفرسان يقاتل بلا هوادة والرصاص يدوى من حوله، وظل صامداً حتى انطلقت رصاصة، مسددة لوطائشة، وأصابته حصانه فى مقتل ، فقفز ود النجومي على حصان آخر وواصل القتال

والرصاص يتر حوله من كل جانب ، وتشابهت السيوف والحراب حوله حتى أصابت رصاصة أخرى حصانه فسقط تحته، ونهض ود النجومي في الحال وكان مجروحاً لكنه واصل القتال حتى أصابته رصاصة أخرى فسقط للمرة الأخيرة وأحاطت به مجموعة من المقاتلين في الحال ووضعوه على جمل وأحاطوا به في شكل مربع إحاطة السوار بالمعصم ليحموه من الأعداء الذين ظنوا أن هذا الجمل يحمل مدفعاً فأمطروه بوابل من الرصاص حتى قتلوا الأنصار عن بكرة أبيهم، وأصاب الجمل رصاصة مصوبة بمهارة فسقط سقطة لم يقم بعدها، وعندما اقترب الإنجليز وجدوا لدهشتهم الشديدة، أن الجمل لم يكن يحمل سوى جثة وعندما استجوبوا بعض الأسرى قالوا لهم «هذا هو أمير الأمراء عبد الرحمن ود النجومي»^(١١).

دفن الجسد باحترام في المكان الذي سقط فيه شهيداً في سبيل الغاية التي عاش من أجلها ومات من أجلها كذلك.

(١) محمد بك غرمو الدرملی الدفردار صهر محمد علی پاشا، كان يقود الجيش المصرى المكلف بفتح كردفان وعندما علم بقتل الملك نمر لصهره إسماعيل پاشا فى سبندى عام ١٨٢٢م رجع أدراجه وحرق المتعة وسبندى وكبوشية والدامر وقتل كل سكانها ثم تعقب الملك نمر حتى لحق به فى البطانة وهزمه إلا أن الملك نمر تمكن من النجاة ورحل الى الحبشة مع بعض رجاله حيث رحب به هناك، ورجع الدفردار إلى مصر وتوفى فى عام ١٨٣٣م.

(٢) الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن بن إبراهيم صوفى سودانى شهير ولد فى توتى عام ١٦٤٣م وتوفى فى عام ١٧٤٣م حيث دفن فى حلة خوجلى وأصبح قبره مزاراً للناس.

(٣) الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية، كان أستاذ محمد أحمد قبل أن يعلن مهادته، وقد نشب بينهما خلاف طرد الشيخ على إثره تلميذه من الطريقة ثم أسره الأنصار بعد فتح الخرطوم حيث انضم للمهادية بعد ذلك، توفى عام ١٩٠٨م.

(٤) مدنى بهذه المعلومات أحمد محمد عبد الرحمن النجومى، حفيد عبد الرحمن النجومى.

(٥) جهاد ، ص ١٧ .

(٦) تقرير ذكر سابقاً، ص ٨١٨ .

(٧) عم المهدي وكان يقود الجيش الذى حاصر سنار، وتآمر ليمهد على الخليفة عبد الله الذى أمر بإعدامه فى عام ١٨٩٢م.

(٨) خطاب الخليفة إلى محمد عبد الكريم بتاريخ ١٢ ذى القعدة ١٣٠٢/٢٣ أغسطس ١٩٩٥م، وخطاب الخليفة إلى عبد الرحمن النجومى بنفس التاريخ، دقر الصادر ١١.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) عبد الوهاب احمد عبد الرحمن، تولى، الخرطوم ، ١٩٧٩، ص ٧٦.

(١١) المصدر السابق، ص ١٤٤ .

الزاکي طمل

كان وقع الصاعقة على مدينة القلابات وقوع ذلك الخبر وانتشاره، أن حمدان أبا عنجة محتضر، لقد استدعى الأمراء قادة الرايات الذين يعملون تحت رايته وإمرته، فأحاطوا بفراش أبي عنجة الذي ذكر لهم وصاياه الأخيرة رغم الآلام التي كانت تعترضه:

- اني ذاهب للقاء ربي، لقد اقتضت مشيئته أن أترك جيشي وهو يواجه العدو وأن أترك أرض الإسلام وهي مهددة بالكفار، وأن أموت على فراشي كما تموت النساء، وليس على ساحة الوغى، ممتشقا سيفي كما يموت الرجال. أناشدكم للمرة الأخيرة أن تطيعوا أوامري، إني قد أمرت عليكم أخاكم الزاكي طمل، اتبعوه وأطيعوا أوامره كما اتبعتموني وأطعتم أوامري. واعلموا أن الله سينصركم ما اجتمعت قلوبكم.

وصمت أبو عنجة وقد بلغ به الجهد غايته ثم فاضت روحه الى بائرها^(١).

انحدر كل من أبي عنجة والزاكي طمل من قبيلة المنضلة^(٢). ولد الزاكي طمل برهيد البردي وشب وترعرع في دار الخليفة عبد الله. كان في طفولته يرعى أبقار العائلة ويتنقل بها في المراعى، وبذا فقد تربى منذ نعومة أظفاره على مشقة الحياة البدوية، وكان في صباه مولعا بصيد النعام والزراف ثم بصيد الأفيال، وما لبث أن أصبح صيادا حاذقا وانضم الى جماعة سليمان الزبير، حيث التقى بحمدان أبي عنجة الذي كان قد تربى مثله في دار والد الخليفة عبد الله. ورغم فارق السن بينهما فقد توطدت عري صداقة وثيقة بين الشاب الزاكي طمل وحمدان أبي عنجة. وتبع الزاكي حمدان عندما ترك سليمان بن الزبير وانضموا معا لرابح فضل الله. ثم وصلهما نبأ ظهور المهدي في النيل الأبيض. فانضموا كلاهما ليعقوب وأقاربه وهم في طريقهم إلى قدير. وعندما وصلوا إلى منطقة تغلي بايعوا محمد أحمد وأقروا بأنه المهدي المنتظر، وانضوى حمدان والزاكي تحت راية الخليفة وقاتلا بجانبه، وظل الزاكي مرافقا لحمدان الذي تولى قيادة الجهادية إبان حصار الأبيض ولم يفارقه أبدا.

كان الزاكي طمل طويل القامة، نحيف الجسم، متناسق الأعضاء، أسمر اللون، مائلا للسواد، عالي الجبين، أفتى الأنف، طويل العنق، ذا شاربين طويلين ولحية خفيفة، جميل

الطلعة يعلو وجهه شيء من الصرامة والأنفة. تميزت شخصيته بالشدة والحزم، وسرعة الغضب، وله طاقة هائلة ونشاط متدفق. كان يتمتع بثقة شديدة بنفسه، كما كان جرى التفكير ثاقبه، شديد الإخلاص، ونسجاعاً في الملمات. ومع إقدامه وإخلاصه في أفعاله، كان يضنيه الطموح، فلم يكن يقنع بما لديه مطلقاً، بل يسعى دائماً للمزيد. وعرف عنه ميل واضح للتفاخر والتباهي. كان رجل حرب لا يشق له غبار، كان يتميز بالحزم والحذر في تحركاته، والسرعة في اغتنام الفرص والاستفادة من هفوات العدو، فكان في نظرة خاطفة سديدة يلم بموقف العدو ويهجم بسرعة وكفاءة. وقد كان كذلك مؤمناً ملتزماً لا يفرط في واجباته الدينية، كما كان مخلصاً للخليفة عبد الله خليفة المهدي وظل الله في الأرض.

وقد اكتشف حمدان أبو عنجة في وقت مبكر عبقرية الزاكي العسكرية التي تفجرت وشعت فيما بعد. يحكى أن الخليفة سأل حمدان مرة قائلاً:

- إذا لا قدر الله وجاء أجلك يا أباعنجة، فمن ستختار خلفاً لك لقيادة الجيش؟ فأجاب أبو عنجة دون أن يبدي اهتماماً لو كي له أحمد ود علي:

- أحب أن يخلفني الزاكي طمل في قيادة جيش المهدي.

فقال له الخليفة :

- إن الزاكي أصغر من أن يضطلع بمثل هذه المسؤولية، فرد عليه أبو عنجة بقوله:

- حقيقة إنه صغير يا خليفة المهدي غير أنه شجاع جسور، خبير بالشؤون العسكرية وعندما يعد خطة ينفذها وحده بإتقان تام دون أن يشرك أحداً معه، وهو متمرس بفنون الكر والفر ولا يوجد بين أمرائك من هو أكفأ منه لملء هذا المنصب، لأنه يتمتع بكل صفات القائد، فلقد خبرته في كل المعارك التي خضناها، ولذا فاني استأذنك يا خليفة المهدي أن يخلفني الزاكي طمل على قيادة الجيوش عندما يحين أجلي، وسيكون النصر إن شاء الله حليفاً له (٣).

يبد أن الخليفة عبد الله قد تجاهل هذه الوصية حينما بلغه نبأ وفاة حمدان أبي عنجة وعين قريه أحمد علي قائداً عاماً على جيش القلابات، وسرعان ما حدثت حركات تمرد، بين الجهادية ثم تبعهم على التو جنود القبائل المختلفة إذ لم يكن أحمد علي محبوباً، ويؤخذ عليه تفضيله لأهله وتصرفاته المتعالية والفظة، ولم يكن في وسعه أن يخلف أباعنجة الذي كان محبوباً لدى جنوده وموقراً بين أمرائه. فكتب أمراء الرابات ومقادهم الجهادية إلى الخليفة عبد

الله يطالبونه بتنفيذ وصية أبي عنجة الأخيرة بإسناد قيادة الجيش للزاكي طمل، فرجع الخليفة عن قراره وأرسل قاضي الإسلام أحمد علي^(١)، ومعه أربعة من الذين يثق فيهم، وكلفه بحمل عزائه إلى الجيش في وفاة قائده حمدان أبي عنجة، وبسلم الزاكي طمل أمر تعينه قائداً عاماً لكل جيوش المهديّة الموجودة بتلك المنطقة وعاملاً على القلايات، وكلف أحمد علي أخيراً بتضميد كبرياء أحمد علي الجريح وبعثه على طاعة الزاكي.

كانت توجد على الدوام منافسة مستمرة بين أحمد علي والزاكي طمل، وكان أحمد علي قد انضم لحملة حمدان أبي عنجة عقب وصول الأمير إلى القلايات وكان قد خضع على مضض لسلطة حمدان الذي لم يكن في نظره سوى العبد الذي نشأ في دار عمه. وقد اضطر الخليفة للتدخل عدة مرات حاثاً أحمد علي على طاعة قائده واحترامه. وكان هذا الشعور بالمعظمة أكثر ظهوراً تجاه الزاكي طمل. لقد كانت عوامل الصيت والشهرة والسن تقف بجانب حمدان، أما الزاكي فلم يكن معروفاً حتى ذلك الوقت كما إن صغر سنه كان يضعف موقفه بالإضافة إلى أنه كان أحد العبيد الذين أعتقهم والد الخليفة عبد الله. وثارت نكرة أحمد علي الاجتماعيّة كيف له وهو التعايشي النبيل، قريب خليفة المهدي والمحارب المحنك، أن يطيع عبداً سابقاً لم يرهن بعد علي مقدراته في قيادة الجيش؟ ومن هنا كانت الغيرة والدسائس التي أدت لموت الزاكي طمل، إلا أن بذورها قد زرعت منذ عام ١٨٨٩م. لقد تظاهر أحمد علي بالخضوع، حيث لم يكن بمقدوره مخالفة أوامر الخليفة، وتكلف الرضاء للزاكي طمل، بيد أنه بدأ في الوقت نفسه في الكيد له.

قوبل تعيين الزاكي طمل بترحيب حار في أوساط الجنود، ولم يضع الزاكي زمناً، فقام بتحصين المدينة على التو، واستعد لمقاتلة الأحباش، فقد أخذت جلبة جيشهم الزاحف تصك الآذان وعلا غباره في سماء القلايات.

رأى القاضي أحمد علي بعد أن حقق ثبوتاً من السلام بين الزاكي طمل وأحمد ود علي أن مهمته قد انجزت وفكر في الرجوع إلى أم درمان حيث تنتظره واجبات أخرى، ولكن الزاكي أبقاه هو ورفاقه قائلاً لهم:

— لاتذهبوا قبل أن تحسم المعركة، فهي التي ستحدد وقت رحيلكم، لأنكم سترجعون وأنتم تحملون للخليفة رأساً سيكون هو رأس يوحنا أو رأسي^(٢).
وكان رأس يوحنا هو الذي أخذه القاضي أحمد ظافراً إلى الخليفة، حاملاً معه نبأ انتصار

الزاكى وهزيمة الأحباش.

فى صبيحة السبت ٦ رجب ١٣٠٦ / ٨ مارس ١٨٨٩م، حاصر القلايات جيش لايحصى، فقسم الزاكى جيشه لأربعة أرباع، على رأس كل ربع قائد، والأمراء براباتهم كل على رأس جماعته، وكان حملة البنادق فى الصف الأول ويليهم حملة الرماح والسيوف جميعاً، وعلى الأجنحة الخيالة فى استعداد تام، كأنما الفارس وحصانه قد قدا معاً من قطعة واحدة. وهكذا خرج الجيش لملاقاة العدو الذى استقبله بوابل من الرصاص المتواصل، وتساقط الأنصار، فأمر الزاكى بفتح النار، وكان قد وضع حملة البنادق فى أقصى خط النار حتى يصيبوا أهدافهم بصورة أفضل، وحمل وطيس المعركة، كانت صفوف جيش الأحباش شديدة التقارب مما أعاق حركته، ودوت الأسلحة النارية، ولمعت الأسلحة البيضاء واشتبكت. وصمت الجلبة الآذان، والرجال يتساقطون من الجانبين، وقد مالت كفة النصر بوضوح لجانب الأحباش الذين تمكنوا بالفعل من اختراق إحدى تحصينات الأنصار وأحرقوا بعض المنازل، بيد أن رصاصة طائشة قد أصابت الإمبراطور يوحنا فى مقتل، فلاذ الجيش الذى كان يظن أنه قد انتصر بالفرار وطارده فرسان الأنصار، وأمر الزاكى طمل المشاة بتعقب العدو والقضاء عليه. فلحقوا بجيش الأحباش المنهوك القوى وهو معسكر على شاطئ نهر عطبرة، وأخذ الأنصار فى مناوشتهم طوال الليل بلا توقف، وفى الصباح أعطى الزاكى الإشارة ببدء المعركة، التى كانت قصيرة وانتهت بالنصر التام للأنصار، ثم للمحاق بالفارين وإبادتهم بلا تهاون. وفى معسكر الأحباش وجد الزاكى طمل جثة يوحنا محنطة فقطع الرأس منها، وغنم الأنصار غنائم كثيرة^(٦).

ويحكى ان الزاكى قد شاهد فى أثناء المعركة سرادقاً فخماً، محلى بالذهب والأحجار الكريمة، يقف تحته الإمبراطور، فأقسم أن يحصل عليه أو يموت دونه، وحاول ثلاث مرات الوصول إليه، فأخفق فى اثنتين، وفى الثالثة تمكن من الاستيلاء عليه رغم النيران المتوالية من جانب العدو. فإنه شق طريقه مستخدماً سيفه بمهارته المعروفة وإقدامه المعهود، حتى وصل إليه، ثم أرسله بعد ذلك هدية للخليفة.^(٧)

أبرز هذا النصر على الأحباش كل مقدرات الزاكى طمل قائداً ورجل حرب، فكلفه الخليفة بتعزيز مواقع الأنصار المتقدمة على الحدود وإرسال حملات على جبال بنى شنقول.^(٨)، فأرسل عدة حملات بقيادة قادة محنكين أمثال محمد عبد الرسول^(٩) وإبراهيم

عبد الله. (١٠) ثم أرسله الخليفة لإخضاع الشلك (١١) الذين ثاروا على سلطته، فترك الزاكي القلايات تحت رئاسة أحمد على ومعه بعض القوات لتأمين حمايتها، وتحرك هو قائداً معظم الجيش الذي كان قوامه عشرين ألف مقاتل، واتجه إلى الشلك حيث تمكن بعد عام كامل من الممارك الضاربة، من إخضاعهم، وقتل الزاكي زعيمهم واستولى على نحاسه الذي كان معروفاً في كل المنطقة، وهو آلة موسيقية ضخمة في شكل ثور منحوت من جزع شجرة ومغطى بالجلد، أخذ الزاكي غنيمة وجمله يضرب أمامه عندما يقود قواته للعرضة أو للقتال (١٢)، ومكث الزاكي ما يقارب ثلاث سنين في بلاد الشلك حتى استتب بها الأمن.

وعقب ثورة الأشراف، في عام ١٨٩٢م، بعث إليه الخليفة بزعماء التمرد ليعدهم. كان الزاكي في طريقه إلى أم درمان عندما رست الباخرة التي كانت تحمل المسجونين عند الجبلين وكان يوجد بينهم محمد عبد الكريم، عم المهدي، وقام الجهادية بأمر الزاكي بإعدامهم ليلاً، ودفنوا في صبيحة اليوم التالي، وفي لحظة إعدامهم هبت ريح عاتية وظلت العاصفة تدوى طوال الليل، فاعتبر الزاكي ذلك نذير شؤم له ولجيشه (١٣)، وقد أكدت الأيام ماذهب إليه فقد توفي الزاكي في عام ١٨٩٣م وفي نهاية العام نفسه هزم الإيطاليون جيشه في أفورادات وشتوا شمله.

عاد الزاكي يقود جيشه المنتصر إلى أم درمان وقد ربا عدده على الثلاثين ألف مقاتل، وكان قد انضم إليه عدد كبير من الشلك وأبنائهم. وتعود الزاكي في أم درمان على إجراء مناورات يومية لجنوده حتى يحتفظوا بمقدرتهم القتالية، وكان يعرضهم بزهو وتباه الأمر الذي أحدث غيرة ونقداً وسط الأمراء الآخرين الذين اشتكوا للخليفة، ولم يكن الخليفة نفسه راضياً عن مظاهر الزهو هذه، وقد أشار للزاكي بذلك ونصحته بالتواضع، ثم أرسله إلى القلايات.

كان يشوب تعامل الزاكي مع بقية الأمراء كثير من التعالي وشيء من الازدراء. وبروي الأمير إسماعيل أحمد أحد أقارب الخليفة أن شقيقه إبراهيم الخليل أرسل مركبين لإقليم الشلك لجلب حبوب وعسل. وفي ذلك الوقت كان الزاكي يستعد للذهاب إلى أم درمان وعندما رأى المركبين أمر بشحنهما بالأسلحة والذخيرة. ولكن القبطان أطلعه على أمر إبراهيم الخليل بجلب الحبوب والعسل مهوراً بتوقيعه، فما كان من الزاكي بعد أن قرأ الأمر إلا أن مزقه تمزيقاً وقال له:

- إن الأسلحة والذخيرة ملكنا، والمراكب كذلك ملكنا، فاشحنها كما أمرتك.
وعند رجوعه إلى أم درمان ذهب إلى المسجد لأداء الصلاة، وكان يقف خلفه الأمير
اسماعيل، وما أن فرغوا من الصلاة حتي تحدث معه الأمير اسماعيل في شأن المركبين، فأدار
للزاكى رأسه نحوه ببطء وقال له باحتقار ودون أن ينظر إليه :
- لقد أعطينا القبطان وكذلك الملاحين مبلغ مائة ريال.

وغادر المسجد دون كلمة اعتذار وختم الأمير اسماعيل حديثه قائلاً:
- وكنا نحن في ذلك الوقت نتظر الحبوب التي كنا في أشد الحاجة لها. ^(١١)
وهكذا أدى تعامل الزاكى المتعالي وقسوة قلبه إلى نفور كثير من أمرائه منه، وكان
معظمهم من أبناء الزعماء والقادة السابقين، الذين كان الزاكى في نظرهم ما يزال مجرد عبد
سابق. ولكنهم تحملوه لمحبة الخليفة عبد الله له ولمقدرته العسكرية التي لاتنضارع. لقد
كان قائداً مهياً ولكن لم يكن محبوباً.
كان الزاكى قد شيد لنفسه منزلاً جميلاً بالقلابات مما أوغر صدر الآخرين وأثار غيرتهم
عليه، وكان الناس يشيرون الى البيت قائلين:

- قصر الأمير الزاكى.

ويقال إنه قد جمع ثروة كبيرة في حملاته ضد الأحباش والشلوك. وهذا أمر محتمل بيد أنه
بالنظر للقواعد الصارمة لتوزيع الجزية يكون من الصعب عليه الحصول على مثل هذه الثروة
من غير وجه حق، ومن الممكن أن يكون الزاكى قد استثمر نصيبه من الغنائم مما وفر له شيئاً
من سعة العيش، التي تبدو نوعاً من الثراء في ذلك الوسط الفقير. وسواء أكان هذا الثراء
حقيقياً أم مزعوماً فإنه قد أثار حسد بقية الأمراء، وخاصة أحمد علي الذي لم تتوقف اتهاماته
ومكائده له فاتهمه بالخيانة وسعي إلى إحداث تمرد وسط الجيش فأثار النعرات القبلية لدي
هؤلاء وأولئك دافعاً إياهم إلى الثورة على زعيمهم ذي الأصل الوضع الذي يريد أن يلقي بهم
إلى العدو حتي يحقق استقلاله. وأمام هذه الدسائس اضطر الزاكى للضرب بيد من حديد
فحبس أحمد علي الذي كان يحرض القوات التابعة له على عصيان أوامره وعلى الاستيلاء
على الذخائر والأسلحة التي يحتفظ بها الأخير بعناية تامة في مخزن السلاح. وكتب الزاكى
إلى الخليفة شارحاً له الموقف بوضوح، بالإضافة للإجراءات التي اضطر لاتخاذها ضد
التعايشة الذين تحالفوا مع أحمد علي ضده ^(١٢).

واستجابة لطلب الخليفة أطلق الزاكي طمل سراحهم وسمح لأحمد على بالذهاب إلى أم درمان. ولا أحد يدرى ما الذي دار بين الخليفة وأحمد على، على وجه الدقة بيد أن أحمد على قد رجع إلى القلايات وأظهر الطاعة للزاكي طمل الذى كان قد رجا الخليفة أن يبقى أحمد على بعيداً من القلايات حفاظاً على راحة الجميع ولكنه عندما تذكر أيامه الخوالى فى دار أسرة الخليفة طلب إرجاع أحمد على إلى القلايات^(١٦).

عقب رجوع أحمد على إلى القلايات، كتب الخليفة إلى الزاكي ليرسل ابنه طه إلى أم درمان ليكون بجانب الخليفة ولكى يزوجه، فأرسله الزاكي فى الحال، وقام الخليفة بضمه لملازميه. وبعد ذلك كتب الخليفة إلى الزاكي طالباً إليه الحضور إلى أم درمان ومعه كل أمرائه، فغادر القلايات فى منتصف عام ١٨٩٣م، ووصل إلى أم درمان حيث أقام معسكره فى الخرطوم وأرسل يطلب الإذن بمقابلة الخليفة. وهذا آخر خطاب نحصل عليه وقد كتب بتاريخ السبت ٢٩ محرم ١٣١١/١٢ أغسطس ١٨٩٣م.

وفى الليل جاء إلى الزاكي، الأمير عربى دفع الله الذى كان ينتظر أمر الخليفة بالتحرك إلى الرجاف وكان معسكره على مقربة من معسكر الزاكي وقال له:

- لا تبقى هنا بل عد إلى وسط جيشك، فأنت هنا فى خطر، لقد فعلت المكائد والانتهاكات الباطلة فعلتها. ابتعد ودع الأيام تثبت زيفها. فرد عليه الزاكي بقوله:
أنا لا أخاف الموت، اذهب يا أخى ودعنى لقدرى^(١٧).

غادر عربى أم درمان فى تلك الليلة فى وقت متأخر. وفى صبيحة اليوم التالى استقبل الخليفة الزاكي استقبالاً كبيراً.

رغم حب الخليفة للزاكي وهو ما كان معروفاً للجميع، إلا أنه لم يستطع أن يفض الطرف عن اتهامات الخيانة التي وجهت إليه، فقد اتهم بالتعاون مع الإيطاليين وأنه يريد أن يخضع لهم جيشه ويقيم لنفسه إمارة مستقلة فى القلايات، بيد أن هذه الاتهامات لم تجد ما يسندها فقد أنكر الأمراء الذين استجوبوا كل الدعاوى التي نسبت إليهم وأثبتوا براءة الزاكي، وقد أقرت المحكمة براءته، ولكنها حكمت عليه بالسجن. وقد وافق الخليفة على هذا الحكم رغبة منه فى تطهير نفس الزاكي ولِيَحْمِلَهُ على المزيد من التواضع، وكان يريد كذلك أن يفحص التهم الموجهة إليه ويكتشف دوافعها، ولكن تم تجاوز أوامره، فقد كانت هناك عداوة قديمة بين قاضى الإسلام أحمد على والزاكي طمل، فالأخير كان قد استولى على قطيع من الإبل كان

يملكه القاضي لصالح جيشه قائلاً:

« إن القاضي لاحتاجة له بالإبل ». ونقم أحمد على عليه، وهو لم يكن قاضي الإسلام فحسب ولكنه كان كذلك قائداً لإحدى رايات الراية الزرقاء، فاعتبر هذا الإستيلاء سرقة لإبله وأقسم على الانتقام، وقد واثته الفرصة عندما سجن الزاكي في بيت خاص وأمر حارسه بتضييق الخناق عليه وبأن يمنع منه الأكل والشرب، ونفذ الحارس هذا الأمر معتقداً أنه قد صدر من الخليفة عبد الله، رغم أن الخليفة كان يرسل كل يوم طعاماً من مائدته الخاصة إلى الزاكي^(١٨).

وبعد معاناة أربعة عشر يوماً، أسلم الزاكي الروح لبارئها في يوم ٢١ سبتمبر ١٩٩٣م/ ١٠ ربيع الأول ١٣١١هـ. ومثله مثل حمدان، لم يكتب لهذا المحارب أن يموت على ساحة المعركة بعد أن قضى حياته كلها مقاتلاً في سبيل الله، لقد مات ضحية للظلم وكان موته بقعة ساهمت في تشويه تاريخ الخليفة عبد الله. وبعد ذلك بقليل طلب الخليفة أن يحضر له الزاكي طملاً، وعلم عندئذ بموته فاستشاط غضباً وأمر بأن يوضع القاضي في السجن بدلاً منه وأن يترك الحكم لله: فإن عاش فهذا يعني أن الزاكي قد كان مذبذباً وإن مات فهذا دليل على براءة الزاكي. ومات أحمد على، ونفذ فيه حكم الله.

لقد حزن الخليفة عبد الله على الزاكي طملاً وربما تذكر عند لحظة الهزيمة الكلمات التي قالها الزاكي ليعقوب عندما ساقوه إلى السجن:

— سيأتي يوم تحتاجون فيه لأمثالي من الرجال ولن تجدوهم.^(١٩)

- (١) سليمان محمد سليمان ، الزاكي طمل، الخرطوم، ١٩٥٢م ص ١٤ - ١٥.
- (٢) من قبيلة المنضلة وهي قبيلة خلاسية، معظم أفرادها من الرقيق السابقين، وكان النعاشية يحتضنون أفراد هذه القبيلة وسطهم ويتزوجون معهم.
- (٣) سليمان محمد سليمان، ذ.س. ص ٦.
- (٤) انضم أحمد علي للمهدى منذ عام ١٨٨٢م، وقد حبه المهدى في منصب قاضي الإسلام عقب تحرير الأبيض، وهي وظيفة أحدثها المهدى في بداية دعوته وظل يمارس عمله حتى غضب عليه الخليفة وسجنه عام ١٨٩٣م ومات في السجن عام ١٨٩٤م وهو التاريخ الذي ذكره هولت (د. س. ص ٢١٠) أما إذا احدثنا على الرواية الشفاهية لأسرة الخليفة فإن موته كان بعد أربعين يوماً من وفاة الزاكي طمل، أي يوم ٣٠ أكتوبر ١٨٩٣م.
- (٥) سليمان محمد سليمان، ذ. س. ص ١٦.
- (٦) اسماعيل عبد القادر الكردفاني ، الطراز المنقوش بشري قتل يوحنا ملك الحبشة، طبعة منقحة: محمد ابراهيم ابوسليم ومحمد سيد القidal بعنوان: الحرب السودانية الحبشية ١٨٨٦ - ١٨٨٩م، الخرطوم ١٩٧٢، ص ٩٠ - ٩٩.
- (٧) المصدر السابق، ص ٩٩.
- (٨) بنو شنقول : تطلق هذه الكلمة على حجر مقدس يضاوى الشكل يحتفد البرتا أنه يحوي أرواح أسلافهم والمصدر شنقولى، ويطلق الاسم على المنطقة التي يسكنها البرتا في جنوب الأتقنا غرب النيل الأزرق.
- (٩) عبد الرسول عمر، أمير وقائد أحد أرباع جيش الشرق: عمل تحت قيادة أبي عنجة ومن بعده الزاكي طمل وقد أرسله الزاكي عقب انتصاره على الأحباش لإخضاع بني شنقول وسكان جبال الأتقنا.
- (١٠) عبد الله إبراهيم، أنظر أبو عنجة، الهامش (١٣).
- (١١) الشلك يسكنون غرب النيل الأبيض، وقد انضموا للمهدية بشيء من الإخلاص وخلال مجاعة عام ١٨٨٩م رفض الشلك دفع زكاة المحبوب بل أرسلوا منحة من مائتي إردب. عقب الانتصار في القلابات أرسل الخليفة الزاكي طمل لتأديتهم. وظل يقاوتهم لما يقارب العامين حتى تمكن من إخضاعهم تماماً، وفي عام ١٨٩٣م كانوا قد خضعوا نسبياً، تحت قيادة ملكهم عبد الفضيل الذي خلف الملك عمر الذي كان قد قتل الزاكي، لقد كانت مقاومة الشلك ضارية.
- (١٢) شقير، ذ. س. ص ٤٠.
- (١٣) جهاد، ص ١٧٧.
- (١٤) سليمان محمد سليمان ، ذ. س. ص ٤٦ و ٤٧.
- (١٥) خطاب الزاكي طمل إلى الخليفة بتاريخ ١٦ رمضان ١٣١٠هـ / ٣ أبريل ١٨٩٣م، مهدية ١/٤.
- (١٦) المصدر السابق، ٩ ذو القعدة ١٣١٠ / ٢٦ مايو ١٨٩٣م.
- (١٧) سليمان محمد سليمان ، ذ. س. ص ٥٦.

(١٨) روى هذه المعلومات مهدي الطيب الأمير يعقوب.

(١٩) زلفو ، كررى ، ص ٢٤٩. ذكرت عدة روايات لموت الزاكي طمل: وفي خطاب لمحمود أحمد رفاً على خطاب الخليفة عبد الله، يرى من خلال وصفه لجة الزاكي طمل أن ذلك دليل على غضب الله عليه،.... وأنه بمجرد خروج روحه، انصلمت النار في جسده واسود وجهه.... خطاب بتاريخ ٢٢ ربيع الآخر ١٣١١هـ / ٢ نوفمبر ١٨٩٣م. مهدية ١٤/١١. تقرير المخابرات المصرية، رقم ١٩، أكتوبر ١٨٩٣، حول سجين وولقة الزاكي طمل.

محمد ود بشارة

ولا ، لا يمكن ان يستمر هذا الحال ١.

كانت تلك هى كلمات الأمير محمود ودبشارة التى قالها وهو يقطع الأرض جيئةً وذهاباً، فبسبب إهمال القائد وتراخيه هزم على أيدي المصريين بين فركة وعكاشة. لم يكن الأمير حمودة^(١) قادراً على الدفاع ومقاومة الأعداء إذ إن كل ما استطاع فعله هو أن يتراجع برجاله إلى فركة، وهناك وقع مرة أخرى أسير إهماله وتراخيه، رغم النصائح واللوم الذى ما فتئ ود بشارة يوجهه إليه.

كان هذا الحال غير محتمل وغير مقبول بالنسبة لهذا الأمير الشاب القوى، التعايشى الذى كان عاملاً على دنقلا وله اليد الطولى على كل قوات الشمال، إذ كان لابد له من تقويم اعوجاج الموقف واصلاح خطئه مهما كلف الأمر حيث إن الأمر لم يضع بعد. حاول محمد بشتى السبل أن ينبه حمودة ولكن دون جدوى، إذ فقد الأمل فى أن ينفخ فى روحه شيئاً من القوة وبالرغم من ذلك كان لابد من القتال واسترداد عكاشة أو على الأقل منع العدو من التقدم.

استدعى ود بشارة الأمير عثمان أزرق الذى عرف بالشجاعة والمهارة، وطلب منه أن يحل محل القائد العاجز حمودة الذى رضخ للأمر مبدئياً عدم رضاه وتذمره، وحسم الجدل فى معركة فركة إذ قتل الأمير حمودة بعد أن استيسل فيها الشيء الذى غفر له سابق إهماله.

بعد سقوط فركة قدر ود بشارة أن دنقلا قد أصبحت مهددة بالخطر، فقام بتجميع كل قواته فيها وتجهيز دفاعه، وانقضى فصل الصيف ثم وصلته بعض الإمدادات من أم درمان، وهاجم الأعداء إحدى مواقعه بكرمة لكنه حصنها وأحكم قبضته عليها. كانت مدافع العدو تهدد النهر، والجيش يتقدم براً، ورأى الأمير أنه من الأفضل إخلاء كرمه والتراجع قليلاً نحو الجنوب على الضفة الأخرى، فزحف بقواته مستتراً بالليل، ومن ثم بدأ القتال إذ انهال الرصاص بينما كانت قوات المهدية تدافع ببسالة وتتراجع بنظام جيد.

كان ود بشارة يحارب متقدماً فرسانه، وكانت الرماح تبرق والسيوف تلمع تحت أضواء الشمس، وتندوى صيحات الأنصار بالتكبير وهم يستقبلون الموت، دويماً تهتر له الأرض.

وتحفر الجيخان، كل منهما على إحدى ضفتي النيل، وأصيب ود بشارة إصابة بالغة، ورغم أنه كان مثقناً بالجراح فقد عزم على الاستمرار فى القتال لولا أن الضرورة حملته على التراجع إلى دنقلا حيث الذخائر والمؤن .

وعندما هوجمت دنقلا، أراد ود بشارة أن يحميها حتى الموت، لكن رفاقه قاموا بنسج حيلة شوهت صورته لبعض الوقت. ففي اليوم السابق للمعركة قام بجمع وكلائه ليوجه إليهم نصيحته الأخيرة وتحدث أحد الأمراء نيابة عن إخوانه قائلاً:

- لو أن رجلاً أراد أن يمارس تجارة وهو يعلم أنها لاشك خاسرة، ألا يتركها؟
فرد ود بشارة قائلاً:

- بلى بلا شك. فواصل الأمير حديثه:

فما بالك بالأمير عندما يتعلق بتجارة تمس الأرواح، فأنت تعلم أن جيشنا يتكون كله من الخيالة والمشاة ولدينا حوالى ستة آلاف رجل بينما الجيش المصرى يزيد على الخمسة عشر ألف، ونحن لانملك سوى ألف وثمانمائة بندقية من نوع قديم، والأعداء يملكون العشرات منها، كما يملكون جيشاً قوياً وبواخر على النهر، ألا ترى أن محاربتهم ستكون تجارة خاسرة؟ إنه لا بد من هجر دنقلا. صحيح إن نحن صمدنا فسنكبدهم خسائر فادحة، لكن هل نستطيع أن نصمد حتى النهاية، حتى نهزمهم ونردهم إلى مصر؟ نحن نرى أن نأخذ عوائلنا وننسحب إلى الدبة، وهناك نطلب المدد من أم درمان. وقف ود بشارة متصباً وصاح فيهم:

- الموت عندى أفضل من عار التقهقر، أرى أن نصمد ونحاربهم حتى نموت ميتة الشرفاء.

وسكت غاضباً، وهنا صمت مؤيدو فكرة الانسحاب لكى لا يثيروا سخطه أكثر من ذلك وأظهروا له اقتناعهم بوجهة نظره ثم تشاوروا بالإجماع على خطة ما.

وفى صباح اليوم التالى، خرج ود بشارة وامتطى جواده للذهاب إلى ميدان المعركة، فقفز خلفه أحد المتأمرين وشل حركته سريعاً وأسرع الآخرون إلى الأمير يحزمونه على سرج حصانه وأخذوا يبلجام فرسه ثم أسرعوا به إلى خارج المدينة وتبعه بقية الجيش، وأخذ ود بشارة يزيد ويتلوى فى وثاقه، وخوفاً من أن يجمع جنوده حوله ويحرضهم على الحرب كمنموه بعمامة وعندما سقط حصانه، أحضروا حصاناً آخر ووضعوه عليه ولكنه سرعان ما وقع كذلك بعد عدة ساعات من الجرى المحموم.

وبعد ثلاثة أيام من السير المتواصل وصلوا إلى مدينة الدبة حيث فكوا وثاق زعيمهم، الذى

صمت غاضباً، وأخذ أصحابه يتمتعون الأعداء فالظروف هي التي اضطرتهم إلى التصرف بتلك الطريقة وهم الآن نادمون على ما فعلوه ولكن الأمير ظل صامتاً^(١).

وفى أم درمان كان الإنفعال عظيماً حينما علم الناس بسقوط دنقلا فى أيدى الغزاة من الإنجليز والمصريين وأن ود بشارة قد هرب دون أن يقاوم، وكانت النساء يهجون فى أغانيهن ويصفنه بكلمات لاذعة، أما الخليفة فقد أخذته الدهشة لما حدث إذ إنه يعرف ود بشارة جيداً وهذا الهرب من جانبه لاتفسير له، لذا فقد استدعاه وطلب منه الإيضاح، لم يرد الأمير أن يفضح أصحابه لكن هذا التويخ والوصف اللاذع بالجبن والهروب أمام الأعداء الذى يوجه إليه فى حضوره لم يكن محتملاً، وطلب من الخليفة بانفعال أن يسمح له بالحديث:

- إن عبدك الذى يحكمه عدلك، والذى تربى تحت ظل سيفك يستحى أن يشغل فكر سيده بشكوى ضد إخوانه. لقد خالفوا نصيحتى وظننت أنى تمكنت من إقناعهم بأن الموت أمام الأعداء خير من عار التراجع لكنهم لجأوا إلى الحيلة وجلبوا لى العار، عسى الله أن يأذن لى بالقتال مرة أخرى فأثبت للذين يوجهون إلى الإساءة إن ابن التعايشى بشارة ليس بجبان.

وقام الخليفة بتهدئة ود بشارة، فقد كان فى تلك اللحظة يحتاج لكل رجاله وقائهم، وإنما هو قتال فى سبيل الله، وإنما يأتى النصر على أسنة الرماح والسيوف، فإما النصر على الأعداء وإما الفوز بالشهادة الذى يقربنا إلى الله. فقال الخليفة:

- هذه هى إرادة الله ولا أحد يستطيع الفرار منها، فالحرب حظوظ، اليوم لنا وغداً علينا، غداً سأحدث إلى كل إخوتنا، ارفع رأسك أيها المقاتل فى سبيل الله، فما زال لديك الكثير لتفعله فى سبيل ربك - الله أكبر - الله أكبر - سوف ينصرنا الله وستنصر دعوته ودعوة مهديه.

وفى صبيحة يوم الجمعة، عقب صلاة الفجر خاطب الخليفة الأنصار أمام ساحة المسجد التى اكتظت بجمع لا يحصى من الناس، انتظم كل منهم تحت راية الأمير، ووقف الخليفة يخاطبهم بصوت قوى جهور مدو:

وأجل إن قوادنا تراجعوا من دنقلا ولكنهم لم يهزموا. لقد كان ذلك ابتلاء من الله وامتنحناً لإيمانهم ولم يهلك سوى الذين عصوني، وكنت قد أمرت رجالى المؤمنين بأن يكفوا عن القتال وأن يرجعوا للمتعة وينصاعوا لأمرى، لقد أنبأنى ملك من الله وروح سيدنا المهدي فى رؤيا بأن أجساد الكلاب الكفرة الإنجليز والمصريين سترقد ثانية بين دنقلا وأم درمان فى نفس الأماكن التى تعفنت فيها عظامهم، فالكفرة لا محال منهزمون والنصر حليف الدين.

استل الخليفة سيفه وأخذ يهزه فوق رأسه وصاح بصوت قوى:
- النصر للدين، النصر للإسلام، وعندما سمع الناس صوته ورأوا سيفه يلعب في الشمس قاموا جميعهم باستلال سيوفهم بقوة وتحد، وهم يزمجرون النصر للدين، النصر للإسلام، الله أكبر.

كان محمد ود بشارة أحد أقارب الخليفة، وكان ما يزال طفلاً صغيراً حينما سحب أباه الذى لحق بالمهدى فى الأبيض. ومنذ تلك اللحظة أخذ يحارب فى كل المعارك التى قادها المهدى بنفسه. ثم أرسله الخليفة بعد ذلك إلى كردفان ليكون فى خدمة عثمان آدم، وعند موت عثمان آدم لم يستطع أن يخلفه لصغر سنه فبقي بعض الوقت مع الأمير محمود ثم استدعاه الخليفة إلى أم درمان وجعله ضمن ملازميه ، ثم أرسله إلى الشمال ليكون عاملاً على دنقلا. وبعد الأحداث التى ذكرناها وبعد أن عرف الخليفة مهارته العسكرية أوكل إليه مهمة تنظيم الجيش فى دنقلا والزحف إلى المتمة، وعندما سقطت المدينة وكما حدث فى كرامة من قبل تمكن بصعوبة بالغة من إحداث ثغرة سحب بها ما تبقى من جيشه. ولقي حتفه بكررى حيث مات شجاعاً كما عاش شجاعاً. وقد وفر عليه موته تجرع الهزيمة .
ألا رحمه الله هو ورفاقه الذين استشهدوا فى سبيل الله على أرض كررى.

(١) حمودة إدريس البقارى، من أمراء البقارة، وكان يقود أحد أرباع جيش الشمال، وشارك في كل المعارك التي جرت في هذا الإقليم ثم قتل وهو يحارب في فرقة عام ١٨٨٦ م.

(٢) زلفو، كررى، ص ٢١٦ والصفحات التالية، شقير، ذكر سابقاً ص - ١٢١٧ والصفحات التالية.

نشرت صحيفة التأمير بتاريخ ٤ سبتمبر ١٨٩٦ قصة حياة محمد ود بشارة في مقال بلا توقيع تحت عنوان :
(THE CAMPAIGN IN THE SUDAN) «حملة السودان» من مراسلنا الخاص، كوش ١٦ أغسطس.

عثمان أزرق

نحيم الظلام على سهل كرري، إلا من الأضواء الخافتة التي كانت ترى على ذلك السهل المتراعى الأطراف حيث ترقد آلاف الجثث. وكانت تظهر هنا وهناك بعض الأشباح التي جاءت تبحث عن موتاهما، ونستطيع أن نتبين بين هؤلاء الباحثين امرأة تتوسط أربعة من العبيد وهي تنحنى على جثث المحاربين الأنصار التي تكسوها سحنة الموت. كانت تلك المرأة هي زوجة عثمان أزرق وقد جاءت لتبحث عن جثة زوجها كي تقوم بدفنها، وفجأة وقف أمامها يوسف يوسف ميخائيل، أحد كتاب الراية الزرقاء، وقد جاء يبحث عن موتاه كذلك كان يوسف هذا قد صادف جثة الأمير عثمان أزرق، فقاد أرملته إلى حيث ترقد الجثة وساعدها في دفنها ثم انصرف هو بعد ذلك ليستأنف بحته^(١).

ينحدر الأمير عثمان أزرق من قبيلة الدناقلة واسمه عثمان محمد عيسى، وكان الرجل قد انضم للمهدى منذ بداية دعوته ثم انتقل إلى خدمة الخليفة عبد الله بعد وفاة المهدي وأخلص في مساندته. وكان عثمان أزرق قد قضى معظم السنوات السابقة لعام ١٨٩٦ في حدود السودان الشمالية حيث كان اسمه يرعب المصريين لما كبدهم من خسائر بفعل غاراته المتواصلة عليهم. وقد كانوا يتمنون موته هو بالذات من بين كل الأمراء تخوفاً من مهارته العسكرية وجراته التي خبروها.

ولد عثمان أزرق في الأبيض حيث استقر والده منذ زمن بعيد. وكان قد التحق بخدمة الحكومة منذ صباه حيث تولى مسؤولية البريد بين الخرطوم ودارفور. وقد تمكن عثمان أزرق من فرض احترامه على أمراء الغرب الممثلين غروراً بسبب قربانهم من الخليفة عبد الله. وذلك على الرغم من أن مهارته العسكرية كانت تثير غيرة الآخرين منه وغضبهم عليه.

في ذات يوم من الأيام، وعند توقفه عند إحدى نقاط البريد لتغيير دابته، سمع حديثاً عن رجل في الجزيرة يزعم أنه المهدي المنتظر، قد تمكن هو وأصحابه، على ضعف تسليحهم، من هزيمة قوة نظامية أرسلتها الحكومة عليهم، كما علم أن ذلك الشيخ قد غادر هو وأصحابه الجزيرة أبا إلى النوبة، فما كان من عثمان أزرق إلا أن أدار ظهره للخرطوم، وامتطى بعيراً قوياً وانطلق إلى كردفان حيث انضم إلى المهدي في قدير وبابعه هناك^(٢). ومنذ تلك اللحظة

سخر عثمان أزرق كل مهاراته ومقدراته العسكرية الفائقة للمهدى وللخليفة من بعده. وتميز عثمان بخصائص قتالية نادرة وكان يتمتع بمقدرة فائقة في توجيه ضربات القاضية للعدو. وفي توشكي قام عثمان أزرق بتجميع ما تفرق من وحدات جيش الأنصار وقادها للمواقع الخلفية لجيش المهديّة جنوب وادي حلفا - وفي فرقة تسلم قيادة قوات المهديّة وجمع الهاريين بعد أن هدأ من روعهم ثم انسحب إلى الضفة الغربية للنيل ومعه النساء والأطفال إلى أن تأكد من سلامتهم وتوفير الحماية لهم ثم رجع بعد ذلك إلى الضفة الشرقية منتظراً وصول العدو.

دارت معركة دنقلا فقاتل فيها بشجاعة منقطعة النظير، وعندما جرح قام بربط نفسه علي فرسه وواصل القتال. وفي كرري التي كانت مسك الختام، أخذ عثمان أزرق سيفه وقاد رجاله فقاتلوا بسيفهم حتي تراكمت جثثهم بعضها فوق البعض، وبينما كانوا يلفظون أنفاسهم الأخيرة لم تلب عزيمتهم بل كانوا يشعرون بقوة مكنتهم من طعن بطون الخيل، أثناء مرور جيش العدو فوقهم، والقضاء علي فرسانها.

هجم عثمان أزرق، وهو متصيب القامة فوق ظهر فرسه، علي مدافع العدو التي كانت تدوى في كل الاتجاهات، فمزقت جسده عدة طلقات سقط علي إثرها شهيداً مخلصاً للمهديّة حتى نهاية حياته. فكان طوال حياته محارباً جسوراً ومقاتلاً شرساً من أجل رفع راية الإسلام ومن أجل استمرار الجهاد ضد الكفار، فقد وعدهم الله علي لسان مهديه بأن الأجانب سيدحرون علي أرض المعركة بالسودان فماذا يهمه إن مات بعد ذلك ما دام الخليفة حياً ليوفي بهذا العهد.

وهكذا حلت سكينه الموت علي شهداء كرري، فلقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعلي الأحياء إكمال ما تبقى، وإن كانت مشيئة الله ألا ينتصروا اليوم فسوف يأتي يوم يتحرر فيه السودان علي أيدي أبنائهم، فمعركة كرري لم تكن عبثاً ومن جنورها تبنت راية الحرية في المستقبل، وستحطم البلاد أغلالها وتحتل مكانتها بين الأمم الحرة.

عمر صالح

غادر الأمير عمر صالح أم درمان وبرقته عدد من الأمراء في يوم ١١ يونيو ١٨٨٨ متجهاً إلى الجنوب وكان يقود أسطولاً يتكون من ثلاث بواخر وستة صنادل ويتكون جيشه من ألف وخمسمائة رجلاً، ثلثاهم من العرب والثلث الأخير من الجهادية.

كانت الرحلة طويلة وشاقة، فقد اضطروا منذ وصولهم إلى فشودة إلى استخدام القوارص لشق طريقهم وسط السدود، وأصبح النهر امتداداً لا نهاية له من الأعشاب التي أخذت تحيط بهم وتخفق أنفاسهم كأنها الثعابين، أما الضفتان فكانتا غطاءً كثيفاً من النباتات التي كانت تعج بالحشرات والزواحف.

وبينما هم يتقدمون تكالبت عليهم الأمراض وسقط الأمير عبد الله الطريفي طريح الفراش، فقد أصابته حمى أفقدته الوعي لمدة أيام حتى توفي في اليوم الخامس لمرضه، فكان وقع موته ثقیلاً على الحملة بحسبانته أول حادث وفاة بالإضافة إلى أنه كان أحد قادة الرايات ورفيقاً لصمر صالح في السلاح منذ زمن طويل^(١).

كانت السفن في ذلك الوقت راسية. وأخذ عمر ينظر حوله بقلق عليه يجد مكاناً يحفر فيه قبراً إلا أن الضفتين كانتا تمتدان أمامه في منظر موحش تغطيها الحشائش على مدى البصر، ومر الوقت ثقیلاً وأخذت السماء تظلم، وفجأة رأى عمر تلاً غير بعيد من الشاطئ فنزلوا جميعهم وصعدوا فوق ذلك التل وحفروا قبراً دفنوا فيه أخاهم بعد أن صلوا عليه وودعه عمر صالح للمرة الأخيرة ثم أفلحوا^(٢).

واستمرت الرحلة المضنية حتى وصلوا إلى لادو في أول أكتوبر إلا أنهم وجدوها خاوية على عروشها، فبقى بها عمر صالح لعدة أيام لكي يأخذ جيشه قسطاً من الراحة. وقد كاد الإبحار يكون مستحيلًا بسبب الفيضان، ومع ذلك فقد كان مضطراً للتقدم لأن طلائعته قد أكدت له أن جيش أمين باشا^(٣) موجود في الرجاف ودقلى، بيد أن الأقوال كانت متضاربة، فعلى حين ادعى البعض أن قوات أمين باشا قد ثارت عليه، زعم البعض الآخر أنها كانت تستعد للزحف على الأنصار.

كان عمر صالح قد أرسل خطابات إلى أمين باشا وإلى حاميات الرجاف ودقلى يدعوهم

للاستسلام^(١) ولم يكن ردهم عليه سوى أن قتلوا رسله، فقرر عمر صالح أن يزحف على الرجاف، ووصلها يوم ١٧ أكتوبر ١٨٨٨م.

حاصر عمر المدينة ثم انتزعها بعد معركة عنيفة في يوم ١٩ أكتوبر ١٨٨٨م وسجن جنود الحامية أو من بقى منهم، على الأحرى، وقد حصل الأنصار على غنائم كثيرة من العبيد والعاج والسلاح والذخائر.

فقد عمر ثلاثة وستين من رجاله في معركة الرجاف حيث قتل بعضهم ومات البعض الآخر غرقاً أو مرضاً، ثم أقام عمر معسكره في الرجاف وعمل على إعادة تحصين المدينة وقرر بعد ذلك أن يرفع راية المهديّة على الأراضي الواقعة شرقي بحر العرب وغربيه، فبدأ بعقد اتفاقات مع مختلف زعماء القبائل شبه السود وقد كان هؤلاء معجبين بشجاعة الأنصار ومقدراتهم القتالية، فسارع أكثرهم الى مبايعة عمر صالح وموالاته إلا أن القليل منهم كان قد آمن بالمهديّة حقاً.

طلب عمر صالح من رجاله أن يلتزموا الأمانة الشديدة في كل معاملاتهم مع سكان الإستوائية وألا يأخذوا شيئاً بالقوة بل عليهم أن يشتروا كل ما يحتاجون إليه، فنفذ الأنصار أوامره بدقة مما بهر السكان وجعلهم عوناً لعمر صالح^(٢) لأنهم لم يتمردوا على مثل هذه الأمانة من التجار الدناقلة والموظفين الأتراك.

علم عمر صالح من طلائعه أن فرقة من دقلى تعد العدة للزحف نحو الرجاف فأعد لهم كميناً على ضفتي النهر وقضى عليهم عن بكرة أبيهم^(٣) ورجع الأنصار منتصرين إلى معسكرهم، ثم قرر عمر أن يزحف إلى دقلى بعد ذلك، ووصلها في يوم ٢٥ نوفمبر.

حاصر الأنصار دقلى وبدأوا الهجوم عقب صلاة فجر يوم ٢٨ نوفمبر وقد قاد الهجوم على القلعة تسعة أمراء على رؤوس راياتهم وهم على منير ونصرة الداراري وأحمد أبو النخيلة وآدم جاد الرب والجزولي رحمة والجزولي مقبول وموسى تاي الله ومحمد النور موسى الأحمر وإدريس الشريف، وحاولوا اقتحام القلعة إلا أن الباب قد صمد في وجههم وقد صب عليهم المحاصرون بالداخل وابلأ من نيران بنادقهم ومدافعهم، وأخذ الأنصار يهرون بفؤوسهم على الباب بينما نيران العدو تحصدهم بيد أنهم لم يتراجعوا بل أخذوا يتنافسون على نيل الشهادة وكل منهم يقول لصاحبه:

« اسبقني يا أخى على الكفار فإنى ميت ».

فيرد عليه الآخر بقوله:

« وأنا كذلك ميت » إلا أنه لا أحد منهم قد فكر فى التراجع فلا أحد يريد أن يقابل ربه وعار التقهر على جبينه، فبقوا جميعاً صامدين خلف أمرائهم حتى قضى عليهم، وقد أيدت ثمان رايات أما الراية التاسعة بقيادة آدم جار الرب فقد تمكنت من كسر الباب، ودخل الجنود كالأسود الضارية يقتلون كل من وجدوه فى طريقهم، وقد كان عددهم قليلاً وبمجرد أن زالت المفاجأة عن الأعداء تكاثروا على الأنصار الذين قاتلوا وقتلوا حتى لم يبق منهم سوى عدد قليل من النجاة^(٢٧).

واستمر الحصار وحاول المحاصرون الخروج إلا أن الأنصار هاجموهم وأجبروهم على الرجوع إلى حصونهم بعد نصف ساعة من القتال، وواصل عمر الحصار رغم قلة ذخائره، ولم يأس من الاستيلاء على دقلى فقد كان واثقاً من أن الله لا يخذل جنده وأن النصر آت من عنده.

وجاءت طلائع عمر صالح لتخبره بأن قوات الحكومة التى هربت من الرجاف قد تجمعت مرة أخرى وتريد أن تزحف على المدينة حيث ترك عمر صالح بها النساء والأطفال والعرضى تحت حماية قليلة العدد، وما كان يستطيع أن يخاطر بمن تركهم خلفه، فرفع الحصار عن دقلى ونفسه تكاد تموت حسرة على ذلك ورجع الى الرجاف مسرعاً وبقي هناك منتظراً الإمدادات التى وعد الخليفة بإرسالها.

كان عمر صالح من قبيلة الجعليين وقد نشأ وترعرع فى شكا بغرب السودان، وتبع المهدي منذ بداية دعوته بصديق وإخلاص، كان متأسفاً على أن جهوده لحمل القبائل شبه السود الساندة له على الإيمان بالمهدية لم تؤت أكلها، وقد أطلع الخليفة عبد الله على خيبة أمله وطلب منه أن يرسل إليه رجالاً مشبعين بالعقيدة حتى يتمكنوا من إقناع هذه القبائل بمنطقهم وبعلمهم.

أخذ ضحايا الأمراض يتزايدون وسبب طقس الرجاف أنواعاً من الحمى والتيف للمجنود، كما كان عليهم عند كل حملة أن يشقوا طريقهم وسط الأعشاب الحادة كالسكاكين مما كان يسبب لهم جروحاً تتفرح وتلتهب ثم تودى بالحياة . وظلت الأمطار تهطل غزيرة بلا توقف وعانت تقدمهم مما أضعف الأنصار وأنهك قواهم إلا أنهم ظلوا صامدين وروحهم المعنوية عالية.

وبالرغم من جهود عمر صالح التى بذلها لتعويض خسائره، فإنه لم يتمكن من تجنيد عدد كاف، لا من رجال القبائل ولا من جنود الحكومة السابقين، فكتب إلى الخليفة يصف حالته

وحالة جيشه وطلب منه بالحاح أن يرسل إليه رجالاً من التعايشة لمقدرتهم المتفردة على تحمل الطقس فقد مات عدد كبير من رجال رايات الكبابيش ورفاعة الذين أرسلهم الخليفة تحت قيادة أمرائهم^(٨) واضطر عمر صالح للبقاء في الرجاف نسبة لنقص الرجال والذخائر.

وفي هذه الأثناء عرض فضل المولى^(٩)، أحد ضباط أمين باشا المتمردين على عمر صالح أن يتحالف معه وطلب من عمر أن يحضر إليه في ودلاى التي كان فضل المولى متحصناً بها، وزعم أنه يريد أن يسلم المدينة لعمر صالح وأن ينضم بجنوده وذخائره للأنصار.

جمع عمر صالح رجاله ووصل الى ودلاى فى مارس ١٨٩١، بيد أنه لم يكذ يصل إلى أسوار المدينة حتى انهال عليه وابل من الرصاص ونيران المدافع، فاستشاط عمر غضباً وأمر رجاله بالهجوم محاولاً اقتحام المدينة، إلا أنه اضطر للتراجع، وفقد في هذه المعركة ما يقارب السبعماية من رجاله^(١٠).

وكتب عمر صالح عند رجوعه إلى الرجاف خطاباً شديد اللهجة إلى فضل المولى يحتج فيه على الخديعة والخيانة اللتين وقع عمر ورجاله ضحية لهما. ومنذ ذلك الحين توقفت كل محاولات الصلح وأصبح السيف هو الحكم بينهما^(١١)، وعندما حاول فضل المولى ومن معه من رجال بذخائره أن يلحقوا بسالم بك فى كفلى، عمل عمر صالح على مهاجمته إلا أنه لم ينجح وقد أضعف الطقس جيشه وأوهن قواه. طلب عمر من الخليفة عبد الله مرة أخرى أن يرسل إليه بمدد حيث لم يبق معه سوى ألف وثلاثمائة من الرجال. وقد كان غالبيتهم مرضى، كما كان عليه أن يواجه القبائل شبه السود القاضنة على جانبي النهر، فقد أخذت هذه القبائل تهاجم الأنصار وتداوم على مناوشتهم عندما رأيت ضعفهم، إلا قبيلة المكاركة فهي الوحيدة من بين تلك القبائل التي ظلت على إخلاصها لعمر صالح، فقد اعتنق زعيمها الدعوة المهدية وكان يمد الأنصار بالحبوب ويحارب هو ورجاله بجانبهم، وعلاوة على ذلك فقد غادر أراضيه وتبع عمر صالح الى الرجاف، إلا أن رجاله قد هجروه تدريجياً إذ لم يبق سواه وأولاده على إخلاصهم حتى قتلوا في معركة الأنصار والبلجيكيين.

دفع تكرار نمرد القبائل شبه السود ببعض الجهادية للتمرد والهروب بأسلحتهم وذخائرههم للانضمام لتلك القبائل، فاضطر عمر للجوء إلى القسوة. وإذ لم يكن فى إمكانه أن يحافظ على الرجاف بالعدد القليل الذي تبقى له من الرجال فقد اضطر للانسحاب إلى بور شمال الرجاف وأقام معسكره هناك، بيد أن الخليفة لم يقبل هذا الانسحاب وأمر عمر بالرجوع إلى الرجاف وأرسل إليه تعزيزات من الرجال والذخائر، فرجع عمر صالح إلى الرجاف يوم ٢ إبريل

١٨٩٣م. ثم قرر الخليفة أن يجعل من الرجاف منفى لكل من لا يرغب فيه من الذين يقفون في وجه سلطته، وفي عام ١٨٩٣م ، أرسل محمد عثمان أبا قرجة^(١٢) أميراً على الإستوائية التي كان عمر صالح أميراً عليها حتى ذلك الوقت إلا أن الأخير خضع لأمر الخليفة وعمل مع علي مختار بكر^(١٣) التعايشي وكيلين لأبي قرجة.

كان أبو قرجة من أوائل الدناقلة الذين تبعوا المهدي، وقد كان ذا شأن كبير بين أهله الدناقلة الذين كانوا لا يكتفون عن التآمر على التعايشة في الرجاف، مما اضطر عمر صالح لأن يكون في حالة حذر دائم لإفشال مؤامراتهم، ولكن أباقرجة لم يقف بجانبهم بل أحبط مكائدهم وقضى على تمردهم.

قام عمر صالح ببعض الحملات في جنوب الإقليم وتمكن من القبض على أحد السحرة وقام بشنقه، وفي هذه الأثناء دخل البلجيكيون من الكونغو واحتلوا دهار المكاركة واصطدموا هنالك بالأنصار، فعقد أبوقرجة مجلساً عسكرياً وقرر أن يزحف على البلجيكيين ويطردهم من إقليم أعالي النيل.

أقلقته هذه الأخبار الخليفة عند وصولها إلى أم درمان لأن عدد الأنصار وقوتهم لم تكن كافية لمواجهة البلجيكيين، كما إنه لم يكن يثق في أبي قرجة فقرر أن يعين عربي دفع الله بدلاً عنه.

تحرك عربي دفع الله يوم ٢١ أغسطس ١٨٩٣ ومعه باخرتان وثلاثمائة من الرجال حتى وصلوا إلى فشودة حيث التقوا بالأنصار الذين كانوا يقاتلون الشلك فقتلوا معهم بعض الوقت ثم واصلوا رحلتهم. ووصل عربي إلى الرجاف يوم ١٢ أكتوبر ١٨٩٣م حيث تولى القيادة في الحال وعاونه عمر صالح بإخلاص، وقاد عربي عدة حملات على البلجيكيين انتصر في بعضها واضطر للتراجع في البعض الآخر.

وفي يوليو ١٨٩٥ جاء عمر صالح إلى أم درمان باحثاً عن مدد وليوضح للخليفة الموقف بدقة، فأرسل الخليفة معه ألفاً من الرجال، بالإضافة لثلاث بواخر وصندل وسبع مراكب بقيادة الأميرين عمر صالح ومحمد حمدنا الله، وعند وصولهم إلى فشودة عملوا على مساعدة عبد الفضيل^(١٤) ضد بعض الشلك المتمردين ، لعدة أشهر ثم اتجهوا إلى الجنوب فاضطروا لأن يشقوا طريقهم مرة أخرى بمشقة ومعاناة وسط السدود، وحبسوا في شامبي لعدة شهور، عانوا خلالها من الجوع والحمى وكل أنواع الشدائد ولم يتمكنوا من مواصلة سيرهم حيث لم يبق لعمر صالح سوى ثلاثمائة من رجاله، فكتب للخليفة موضحاً حاله طالباً منه أن يرسل

إليه جيشاً لنجدة الرجاف عن طريق البر لا النيل الذى لا يمكن الابحار فيه. كما أرسل كذلك إلى عربى دفع الله شارحاً حاله مع أصغر بواخره التى تمكنت من شق طريقها وسط السدود بعد آلاف الصعاب الجمة.

غادر عربى معسكره فى بور فى الحال وذهب إلى غابة شامبى حيث وجد من بقى من رجال عمر صالح فى حالة من البؤس لم يستطع إزاءها أن يمسك دموعه، فترك لعمر بعض المواد الغذائية والذخائر بالإضافة لمائة وخمسين من الرجال يستطيعون أن يفتحوا الطريق وسط السدود، وفى المقابل أخذ مائة وخمسين من بين رجال عمر صالح الأشد مرضاً ثم رجع إلى بور.

وفى هذه الأثناء بدأت الأمطار تهطل غزيرة، فعطلت كل عمل فى السدود، وأصبح الرجال منهكى القوى، لا طاقة لهم على أى نشاط فاستسلم عمر صالح وقرر البقاء فى شامبى حتى نهاية فصل الأمطار، ثم تمكن أخيراً من شق طريقه والحق بعربى دفع الله فى بور^(١٥). وكانت خاتمة المطاف لعمر أمام مدينة الرجاف، حيث سقط صريعاً وهو يحمل سلاحه دفاعاً عن المدينة التى فتحها قبل تسع سنوات، لقد تفوق البلجيكيون بعددهم وعدتهم على الأنصار المنهكين بينادقهم القديمة، إلا أن الأنصار صمدوا خلف أمرائهم، وقد جعلت منهم شجاعتهم الأسطورية ورغبتهم فى الشهادة أسوداً ضارية حتى تساقطوا وهم يواجهون العدو بعد أن سحقتهم الأسلحة الحديثة المتفوقة على أسلحتهم.

قاتل عمر حتى آخر نفس فى حياته، وقد ظل يحصد الرؤوس بسيفه ويوجه ضربات القاضية حتى سقط أخيراً وهو يسعى إلى الجنة التى كان يتمناها طوال حياته والتى وعد الله بها كل أولئك الذين يقاتلون فى سبيله.

وستغسل جروحه كل الذنوب التى اقترفها فى حياته مثل كل الناس، فإن الشهادة تمحو كل الخطايا، أما ذكره فستظل خالدة فى الأذهان بصفته رجلاً كان شديد الإخلاص لدعوته وصورة حية لبطل من أبطال المهدية بشجاعته وجلده وتحمله لكل الصعاب والشدائد حتى مات فى سبيل الله وإعلاء كلمته، ألا رحمه الله وطيب ثراه وأورثه الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

(١) خطاب عمر صالح إلى الخليفة عبد الله بتاريخ ٢١ صفر ١٣٠٦هـ ٢٧ أكتوبر ١٨٨٨ م هدية ٣٣/١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ولد أمين باشا واسمه الحقيقي هو إدوارد كارل أوسكار ثيودور شنايتز في عام ١٩٤٠ بأوبلين في سيليزيا، ودرس الطب ثم التحق بخدمة سلطان تركيا، وفي عام ١٨٧٨ عينه غردون باشا حاكماً على الإستوائية، فقام بمقاومة الأنصار وعندما تمرد عليه جيشه جاء متانلي لنجدته في عام ١٨٨٩م، وفي عام ١٨٩٢ قام بعض تجار الرقيق العرب باغتياله بالقرب من شلالات ستانلي.

(٤) لقد دمر هذا الخطاب، الذي كتبه عمر صالح، في حريق دقلي إلا أننا حصلنا على ترجمة له باللغة الفرنسية من خلال الترجمة الفرنسية لكتاب ستانلي (' Dans les Te'ne'bres de l' Afrique ') «في سجاها إفريقيا» ، باريس ، ١٨٩٠ ، الجزء الثاني ، ص ٤٤٥ ، وهو خطاب بلا تاريخ ، ومن المحتمل جداً أن يكون قد كتب بمجرد وصول عمر صالح لأدو في أكتوبر ١٨٨٨م.

(٥) برو كوليتز، The Southern Sudan 1883-1898: A Struggle for control وجنوب السودان ١٨٨٣ -

١٨٩٨: صراع من أجل السيطرة. لندن، ١٩٦٢، ص ٧٢.

(٦) المصدر السابق ، ص ٦٤.

(٧) خطاب عمر صالح إلى الخليفة بتاريخ ١٣ ربيع الآخر ١٣٠٦هـ ٢٧ نوفمبر ١٨٨٨م.

(٨) كان عدد الكباش يبلغ واحداً وأربعين وثلاثمائة رجلاً بقيادة أميرهم فضل الله أبي سنون، وكان لبني حسن تسع رايات وتضم في مجملها ثلاثة وعشرين وتسعمائة رجلاً، إلا أن أسماء أمرائهم لم تذكر في خطاب عمر صالح إلى الخليفة بتاريخ ٢٢ محرم ١٣٠٧هـ / ١٨ سبتمبر ١٨٨٩م.

(٩) فضل المولى بك محمد هو أحد ضباط أمين باشا من قبيلة الدينكا، ثار بقواته على أمين باشا وزحف نحو عمر صالح، ثم قتله عربى دفع الله في عام ١٨٩٠م.

(١٠) كوليتز، ذكر سابقاً، ص ٨٢.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) محمد عثمان أبوقرجة من أمراء الدناقلة، كان يعمل تاجراً للرقيق ثم تبع المهدي منذ بداية دعوته، فعينه المهدي عام ١٨٨٤م أميراً على البحرين «اليل الأزرق والأبيض» عندما حاصر الخرطوم، ثم أرسله الخليفة إلى حضن دقة إلا أنهما اختفا، واتهم بعد ذلك بالانتماء في مؤامرة الأسراف في عام ١٨٩١ فأرسله الخليفة أميراً على الرجاف في عام ١٨٩٢، ثم سجنه عربى دفع الله لتصرفه في أموال بيت المال إلا أنه تمكن من الهرب في عام ١٨٩٧ وذهب إلى دارفور، وتوفي في أم درمان عام ١٩١٦م.

(١٣) على مختار بكر، هو أحد أقارب الخليفة عبد الله من أمراء التعايشة، كان وكيلاً لعمر صالح. وقد قاد عدة مرات البواخر التي أرسلها الخليفة إلى الرجاف، وتوفي في معركة الرجاف عام ١٨٩٧م.

(١٤) كان عبد الفضيل قد خلف الملك عمر الذى قتله الزاكي طعل في عام ١٨٩١ وحكم عبد الفضيل التسلط، وهو الذى وقع الاتفاق مع مارشاند في عام ١٨٩٨م.

(١٥) كوليتز، ذكر سابقاً، ص ١٣٣ والمصفحات التالية.

عربي دفع الله

عربي دفع الله تعايش من عشيرة الجبارات، ولقد صحب عائلة الخليفة عبد الله إلى أبي ركة، وكان أحد الذين تبعوا الأمير يعقوب وعشيرته للحاق بالمهدى وهو في طريقه إلى قدير حيث بايع المهدى ثم لازمه في كل حملاته.

وبعد سقوط أم درمان الذي شارك فيه مثل كل محاربى الراية الزرقاء، صحب يونس ود الدكيم إلى الجزيرة أولاً ثم إلى القلابات، وكان قائداً لأحد الأرباع في جيش القلابات حيث عمل في البداية تحت إمرة أبي عنجة ثم الزاكي طمل كما شارك في جميع حملات الحبشة. وعندما ذهب الزاكي طمل لمحاربة الشلك، استدعى الخليفة عبد الله عربي وأرسله إلى دنقلا وظل بها زمناً حتى نشبت الخلافات بينه هو ومحمد خالد من طرف ومساعد قهجوم^(١) من طرف آخر، فاستدعاهم الخليفة، ثلاثتهم، إلى أم درمان ثم أرسلهم مرة أخرى إلى دنقلا، فأقام عربي في دنقلا بعض الوقت ثم عاد إلى أم درمان حيث أسند إليه الخليفة وظيفة قيادية في ملازميه.

وعندما شك الخليفة في أن الزاكي طمل يتآمر عليه، احتج عربي دفع الله بشدة على ذلك الأمر مذكراً بأعمال الزاكي طمل ومبرهنات على إخلاصه، فمثل هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكونوا خائنين. وعندما حضر الزاكي طمل إلى أم درمان ليرد على الاتهامات التي حاكها ضده أحمد علي، قابله عربي دفع الله، الذي كان الخليفة عبد الله قد عينه أميراً على مديرية الاستوائية سراً، ونصحه بالبقاء في معسكره أو العودة إلى القلابات، وأن يرفع دفاعه إلى الخليفة من هناك. أما بالنسبة إليه فإنه لا يستطيع أن يقدم أى عون لأنه يتحتم عليه أن يغادر في الفجر فودع صديقه وذهب كل منهما نحو مصيره.

غادر عربي دفع الله أم درمان في ٢١ أغسطس ١٨٩٣م في باخرتين وثلاثمائة رجل. وعندما وصل فشودة انضم عربي دفع الله ورجاله إلى الأنصار في حملتهم ضد الشلك، حيث أسر عدداً من الزعماء الشلك وغنم خمساً وعشرين بندقية بذخيرتها. ثم سار في اتجاه الجنوب، وشق طريقه بصعوبة شديدة وسط السدود حتى وصل بعد رحلة بحرية شاقة إلى الرجاف في ٢٢ أكتوبر وتسلم مقاليد الأمور بمجرد وصوله حيث عزل أباقرجة وحبيه.

أجرى عربى تحقيقاً جاداً حول نشاط أبى قرجة فى الرجاف. واكتشف أن أبى قرجة قد استخدم لأغراضه الخاصة مبلغ الستمائة جنيه التى اقترضها من بيت المال لحاجات الجيش، لذلك كبله عربى دفع الله بالقيود وسجنه وصادر أمواله لتوضع فى بيت المال. أعاد عربى كذلك تنظيم بيت المال وبنى داراً منفصلة لى تخزين فيها الغنائم والأسلحة والذخائر التى كانت توضع من قبل فى بيت الأمير، القائد العام للحملة.

كما قام بإرجاع الكثيرين من التعاضة الذين تدمروا من طول مدة خدمتهم فى الاستوائية، وكان بعضهم قد حضر مع عمر صالح، فكانوا يطالبون بالعودة إلى الشمال، لذلك استجاب عربى لطلبهم وقام بإرسال جزء منهم فى أول باخرة غادرت الرجاف إلى أم درمان حاملة رسائله، واحتفظ بالآخرين منتظراً أن يرسل إليه الخليفة قوات أخرى.

وكما حدث لسلفه عمر صالح من قبل، فقد تبين لعربى دفع الله سوء موقع الرجاف مضافاً إليه سوء مناخه، وكان يود أن يقيم معسكره فى لادو متجنباً بذلك السدود التى تنتشر بين المحيطين والتى كانت تجعل من الإبحار أمراً بالغ المشقة والخطورة. كما إن الرجاف كان منطقة فاحلة يستحيل فيها الحصول على الإمدادات حيث كان الجند يقضون أياماً عديدة قبل الحصول على كفايتهم من المؤن. ولكن عربى استفاد من تجربة عمر الذى غضب منه الخليفة عبد الله عندما أقام معسكره فى بور، فكتب عربى إلى الخليفة طالباً موافقته^(١). ولكن كل هذه الأسباب التى ساقها عربى لم تنجح فى إقناع الخليفة بقبول فكرة تغيير مكان المعسكر، إذ إنه أصر على أن يظل المعسكر بمنطقة الرجاف.

كما كان على عربى مواجهة القبائل شبه السوداء المعادية، بالإضافة للغيرة والحساسيات التى كانت تقع بين قواته، غير أنه تمكن بفضل دبلوماسيته وصفاته القيادية من إشاعة الوحدة وتصفية نفوس أمراه.

فى نوفمبر ١٨٩٣م هاجمت قبائل اللاتوكا قوات الأنصار التى كانت فى طريقها للبحث عن مؤن، مما جعل عربى يقرر الزحف عليهم فهاجمهم فى جبالهم التى تحصنوا بها، وبعد قتال مرير هزمت اللاتوكا وأخذ الأنصار كل ممتلكاتهم وأسروا النساء والأطفال، فخضع زعيم اللاتوكا وبعض زعماء القبائل الأخرى. وعاد الأنصار إلى الرجاف منتصرين، وبهذا الانتصار استعادت قوات المهدية هيبتها. كما قام عربى بإرسال بعض الزعماء إلى الخليفة لمبايعته. وكان غرضه من ذلك حرمان هذه القبائل من زعمائها وضمائهم عدم تمردهم. واغتنم هذه الفرصة لتعزيز دفاعه حول الرجاف. وبمجرد إخضاع اللاتوكا تحول اهتمام عربى دفع

الله إلى فضل المولى وإلى خطر البلجيكيين الذي كان يهدد الحدود.

وفى يناير ١٨٩٤م ترك عربى بعض رجاله للدفاع عن الرجاف وذهب بكل جيشه إلى غاندا حيث كان فضل المولى يقم معسكره. وعندما وصلوا هناك وجدوا المعسكر خالياً، فقد انسحب فضل المولى إلى وادلى بهدف الانضمام إلى البلجيكيين فى الجنوب، فلاحق به الأنصار قبل أن يصل إلى وادلى، ودار قتال عنيف قتل فيه فضل المولى ومعظم رجاله، عدا خمسمائة وألف من الجهادية الذين ألحقهم عربى بجيشه وغيرهم من الذين هربوا إلى وادلى، وقد غنم عربى مدفين حربيين وثلاثمائة بندقية وكمية كبيرة من الذخيرة. ثم قام بإرسال حملة ضد البلجيكيين الذين انسحبوا إلى موندو ورجع إلى الرجاف مع بقية جنوده.

هاجم الأنصار موندو فى مارس ١٨٩٤م وكان النصر حليفهم فى بادئ الأمر، غير أن وصول بعض التعزيزات للمحاصرين أجبر الأنصار على الانسحاب، فجمعوا مرة أخرى وتحركوا لملاقاة البلجيكيين، وفى هذه المرة انتصروا وواصلوا سيرهم غير أنهم اصطدموا بقوات جديدة والتحموا معها فى قتال مرير حتى أجبروا على التراجع فأقاموا فى قرية الزعيم رانزى^(٣)، دورو.

رانزى هو الإبن الثانى لسلطان الزاندى، يامبيو^(٤). ولقد كان سلطان الزاندى عكس ابنه تماماً، فلم يكن يسعى للاستفادة من الطرفين، بل كان يقاتل الأنصار بقوة شديدة، أما ابنه رانزى فقد كان تارة يساعد الأنصار حينما تكون الغلبة لهم وتارة يساعد البلجيكيين حينما يحس بأن الدائرة على الأنصار.

فى عام ١٨٩٧م هزم يامبيو الأنصار مما اضطر عربى دفع الله للتقهقر من غرب الإستوائية إلى الرجاف، ووجد نفسه فى وضع حرج، فقد كان عليه أن يعوق تقدم البلجيكيين، ولم يكن يملك الجيش الكافى القوى لهذه المواجهة إلا أنه قام بإرسال عدد من الرجال تحت إمرة واحد من أكثر وكلائه إخلاصاً وهو بشير مقبول إلى دورو.

ثم قام بإرسال عمر صالح لإحضار رجال وذخيرة من أم درمان، وطلب منه إعطاء الخليفة صورة دقيقة عن الوضع وضرورة إحضار التعزيزات فى أسرع وقت ممكن.

تحرك عمر فى باخرتين غير أن السدود عرقلت سيره، وأضاع زمناً طويلاً وهو يحاول أن يشق طريقه وسط تلك الأعشاب التى كانت تشكل مرتعاً خصباً لأفراس البحر والتماسيح. وأخيراً نجح فى إختراق طريقه وسط تلك الطبيعة القاسية ووصل منهوك القوى إلى أم درمان فى يوليو ١٨٩٥م.

اغتم الخليفة كثيراً عند سماعه الأنباء التي حملها له عمر صالح عن حالة الأنصار في الاستوائية وكأنما الله غير راض عن الأنصار ، إذ هي هزيمة في الشمال وأخرى في الجنوب. كما يهدد الإيطاليون حامية الشرق، وفي الغرب كان محمود يقاتل ضد المكائد القبلية والسلطنات المجاورة الموالية للسوسى والتي كانت تهاجم الأنصار.

أى ذنب جناه الأنصار وأية جريمة اقترفوها حتى يتخلى الله عنهم؟ هل قصر فى شيء. وهو خليفة المهدي؟ كان الأثم يعتصر قلب الخليفة عبد الله وهو لا يجد إجابة لهذه الأسئلة التي كانت تشغل فكره. ولما كان إيمانه بالله قوياً فقد توكل عليه وواصل عمله المضنى فقام بإرسال عمر صالح ومعه ثلاث بواخر وصندل وعدد من المراكب المحملة بالرجال وضم إليه الأمير محمد حمدنا الله وكليلاً له. غادر عمر صالح ورفاقه أم درمان في أغسطس وعندما وصلوا إلى فتودة قاموا بمساعدة عبد الفضيل ضد بعض الشلك المتמרدين، حيث قاتلوا إلى جانبه لعدة أشهر وبعد ذلك اتجهوا إلى الجنوب. ومرة أخرى اعترضت السدود طريقهم عند شامبي وعاقبت سيرهم. ولما كان معظمهم منهكى القوى ومرضى، فقد أقاموا معسكرهم فى شامبي، وبعد مجهودات شاقة وعيفة تمكنت أصغر السفن من الوصول إلى الرجاف.

انتظر عربى دفع الله وصول الإمدادات لأكثر من عام ونصف ولكن دون جدوى ، فقام باستدعاء الأنصار، المتفرقين في المنطقة إلى الرجاف، وأرسل بعد ذلك الياس على كتونة إلى أم درمان بالطريق البرى الذي كان يستخدمه الأتراك قديماً.

غادر الياس وصحبه الجنوب قاصدين الشمال، وعند وصولهم إلى التونج هاجمهم التوير حيث قتل الياس ومعظم رجاله فى هذا الاشتباك بينما تمكن بعضهم من النجاة وحملوا نبأ الكارثة إلى عربى.

فجع عربى دفع الله نبأ آخر، حين تسلمه لخطاب عمر صالح الذى يصف فيه حالة جنده، وكان عليه أن يسارع إلى نجده، فتحرك فى التو إلى شامبي ومعه مائة وخمسون من جنوده. التقى عربى وجنوده بالثلاثمائة المتبقين من جيش عمر الذى كان يتكون من ألف رجل أرسلهم الخليفة، وقد كان الجيش كله يعاني من الجوع والمرض. ترك عربى رجاله مع عمر صالح وأخذ المرضى من جنود عمر إلى بور حيث أقام معسكره.

حاول عمر صالح إزالة السدود بمساعدة جيش عربى، ولكن لسوء الطالع أخذت الأمطار فى الهطول، مما عرقل سير العمل فأجلت المحاولة إلى وقت آخر. غادر عربى بور مرة أخرى وعاد إلى عمر صالح لاستكشاف الوضع، فوجد أن معظم رجاله مرضى. عقد مجلساً حربياً

مع عمر صالح ومحمد حمدنا الله وقرر على إثره إرسال باخرة إلى أم درمان لطلب العون، وقد حاول الرجال شق طريقهم حتى الرجاف. وكلما تمكنوا من قطع الأعشاب، كانت تنبت ثانية بسرعة مذهلة كأنها أخطبوط يخنقهم بأذرعه الغليظة ويسد الطريق أمام تقدمهم، وكانوا لا يكادون يتنهون من القطع حتى يبدأوا فيه من جديد. وبعد صعوبات جمة وصلوا إلى الرجاف، ولم يكن بالمعسكر سوى ألف من الرجال، وكانت تنقصهم الذخيرة والإمدادات. وكان كل رجل منهم يتسلح بحربة إضافة إلى بندقيته.

كان عربي يتساءل بقلق عن الطريقة التي يمكنه مواجهة البلجيكيين بها إذا لم تصله الإمدادات. وتوكل على الله إلا أنه كان يعلم أن عليه أن يفكر ملياً في إيجاد حل، ثم أخذ كل رجاله الموجودين في بور وأقام في الرجاف التي أحسن تحصينها.

قلب رانزي ظهر المجن للأُنصار للمرة الثانية وتحالف مع البلجيكيين الذين كانوا يتقدمون عبر أراضيهم نحو الرجاف.

دعم عربي الرجاف بإقامة زريبة ضخمة حول المنطقة ووضع بها ثلاثة مدافع. وكان عدد رجاله يقارب الألف والأربعمائة، ولكن الجوع أجبرهم على مداومة الهجوم على القرى المجاورة للحصول على طعامهم.

واضطروا للتوجه إلى بلاد الزاندي عندما نفذ الغذاء من حولهم، ودخل عربي بلاد الزاندي جاهلاً تقدم البلجيكيين نحوه. وكان الزاندي قد نصبوا له كميناً بالقرب من إحدى قرى يامبيو، فدار قتال عنيف بين الطرفين انتصر فيه الأُنصار وقاموا بتحصين القرية التي استولوا عليها، وسعى الزاندي خلال شهر كامل لإخراج الأُنصار ومعهم غنائم لا بأس بها ولكنهم فقدوا حوالي المائة وعشرين من رجالهم، وكان من بينهم عدد من الأمراء.

عاد عربي إلى الرجاف في فبراير ١٨٩٧م وأرسل بعض عيونه لاستكشاف مكان وجود البلجيكيين. وحينما علم بوجودهم في بدين أرسل فرقة تتكون من ألف ومائتي رجل بقيادة الأمير محمد علي بادي لإيقاف تقدمهم. أما عربي فقد عسكر في الرجاف وتحت إمرته حوالي الأربعين رجلاً.

وصل محمد علي بادي ورجاله بالقرب من بدين في مساء السادس عشر من فبراير ١٨٩٧م. وفي صباح اليوم التالي شكلوا رباعاً فوق الصخور المطلة على سهل بدين حيث يمر الطريق المؤدى إلى الرجاف وفي حوالي الثامنة صباحاً تقدم الأُنصار نحو البلجيكيين حيث التحم الجيشان. كانت الغلبة في البداية للأُنصار، ولسوء الحظ فقد وصل جند رانزي وشقوا

صفوف الأنصار ودار قتال عنيف بين جيش رانزي والأنصار، حيث تكبد فيه الأنصار خسائر فادحة. كان الأمير محمد علي يقاتل على رأس جيشه حتى استشهد. وقد تراجع الأحياء منهم إلى الرجاف وفي أثرهم البلجيكيون الذين وصلوا عند الأصيل واصطدموا بطلائع الاستكشاف الأنصارية. وفتح البلجيكيون عليهم النيران وفي النهاية كانت الغلبة للبلجيكيين الذين احتلوا الزريبة ثم الموقع العسكري. أما الأنصار فقد احتموا بضفة بحر الغزال وأدرك عربى أن الوضع ميؤوس منه، وحينما أرخى الليل سدوله انسحب عربى ورجاله إلى بور وتحصنوا بها، ولكن خسارتهم كانت فادحة فقد استشهد كل الأمراء تقريباً ومعهم الكثير من رجالهم فى الرجاف. أما عربى فلم يكن معه سوى سبعمئة رجل والقليل من الأسلحة والذخيرة، ورغم هذا كله فقد ظل ثابت الجنان، وكان يحرص دائماً على رفع الروح المعنوية لرجاله الذين بدأ اليأس يدب في نفوسهم، فقام عربى بإعادة تنظيم جنده وإقامة التعزيزات حول بور. ومن ثم قام بتسليح كل رجاله بالحرايب وقاد عدة حملات على القرى الموجودة من حوله وخاصة على الدينكا. وأمضى عاماً كاملاً في انتظار النجدة وإحباط المؤامرات هنا وهناك. كما قام بمعاينة مديرى إحدى محاولات الاختيال، حيث قام اثنان من الجهادية هما يوسف الكاتب وبخيت رأس المية بمحاولة لاغتياله والاستيلاء على الباغرة والانضمام إلى البلجيكيين، ولكن المؤامرة كشفت وتم إعدامهم أمام الجيش وذلك فى ربيع الأول ١٣١٦هـ الموافق يوليو ١٨٩٨م^(٥).

رغم كل هذه المصاعب فقد تمكن عربى من مواجهة هذا الموقف العصيب، وظل طوال الوقت ينتظر وصول النجدة من الخليفة، ولكنه كان يجهل أن الخليفة قد انسحب إلى كردفان لمواصلة القتال بعد هزيمته فى كررى.

وفى شهر مايو حاول عربى استعادة الرجاف حيث تمكن الأنصار بعد معركة عنيفة من الدخول إلى الرجاف إلا أن البلجيكيين تمكنوا من صددهم إلى بور. بيد أنهم كرروا محاولاتهم ضد البلجيكيين مرات عديدة. وفى نوفمبر تحركت قوة بلجيكية - انجليزية إلى بور، وحينها فقط علم عربى بالأحداث الأخيرة، معركة كررى وسقوط أم درمان وانسحاب الخليفة إلى كردفان. كما إن كشنر كتب إلى عربى طالباً منه الاستسلام.

فقام عربى بإحراق كل البواخر وتحرك بعد ذلك إلى الشمال غربى بور. كان يريد بذلك اللحاق بالخليفة ومساعدته بنفسه ورجاله. ووصل بعد مسيرة شاقة عبر مستنقعات بحر الغزال إلى بحر العرب، ومن ثم إلى دار كلكة حيث قام فى عام ١٨٩٩^(٦) ببناء زريبة حصينة ثم

ذهب لنجدة شيخ الرزيقات الشيخ موسى مادبو^(٧) والذي هاجمه سلطان الفور على دينار^(٨) ولكن موسى خدع عربي دفع الله، فانسحب إلى دار التعايشة حيث رفض كل محاولات السلام التي قام بها السلطان علي دينار.

أرسل عليه السلطان علي دينار حملة بمساندة الرزيقات، كما أرسل الإنجليز حملة أخرى بقيادة عبد الرحيم بك سليم أبي دقل إلى ماندوا حيث يوجد عربي، وفي ديسمبر ١٨٩٩م كان عربي مواجهاً بالقتال على جبهتين مختلفتين، وقد بات الأمر واضحاً بتعذر مواصلة المقاومة لزمّن طويل، وعند ذلك علم عربي باستشهاد الخليفة وأن دولة المهديّة لم تعد إلا في قلوب الذين آمنوا بها وضحوا بأرواحهم من أجلها.

كتب عربي إلى أبي دقل يخبره باستعداده للتسليم وفقاً لشرط معينة، غير أن أبا دقل رفض ذلك، بل طلب منه الاستسلام والقبول بأن يعامل هو ورجاله أسرى حرب.

فرفض عربي بدوره ذلك، ورغم ذلك فقد جرت بعض المفاوضات. وفي تلك الأثناء أطلق أبو دقل النيران على معسكر الأنصار غير أن ضابط الاستخبارات حسن وراق عمل على تهدئة النفوس ووقف إطلاق النار، ووصل إلى تسوية مع عربي ولكن أبا دقل رفض هذه التسوية وتمسك بشروطه.

قام عربي بمهاجمة معسكر أبي دقل لمدة أيام حتى نفذت ذخيرة وموّن أبي دقل واضطر إلى رفع معسكره، وغادر عربي بعد ذلك إلى دار التعايشة متوجهاً إلى حفرة النحاس. وفي الطريق قام بعدة غزوات في الجوار. فاستنجد شيوخ هذه القبائل بالسلطة في الخرطوم.

كان عربي يريد التسليم للسلطة الجديدة، فقام بعدة محاولات طالباً فيها ترك إدارة بحر الغزال له لصالح حكومة الخرطوم، فقبلت حكومة الخرطوم بذلك وجرت عدة مفاوضات، ولكن خوف عربي من الخيانة جعل منه رجلاً حذراً جداً فضايق رجاله ذرعاً بهذه الحياة وتمردوا عليه في عام ١٩٠٢م. وانسحب عربي ومعه حفنة من الرجال المخلصين إلى ضفاف نهر أبره حيث هاجمه علي دينار وأجبره على الاستسلام^(٩).

فانضم كل أفراد جيشه البالغ عددهم ستمائة رجلٍ وملك كل واحد منهم بندقيته إلى جيش علي دينار. وظل عربي في الفائر يقاتل جندياً في جيش علي دينار حين تناح له الفرصة^(١٠)، ولم يكن علي دينار يثق في عربي فقد كان يظن أنه يتآمر عليه.

وفي عام ١٩١٦م اتهم علي دينار - قبل استسلامه - عربي بالتورط في الاتصال بحكومة الخرطوم وحكم عليه بالإعدام^(١١).

عربي دفع الله أحد أشجع أمراء المهديّة وأكثرهم حنكة، واجه الموت بعيداً عن ميدان المعركة وبلا مجد، مات من أجل قضية ليست قضيته وهو الذي كان يبحث طيلة حياته عن الشهادة، فإيا لسخرية القدر في بعض الأحيان.

(١) مساعد قدوم : أحد أمراء الهبانية، عمل وكيلاً مع عبد الرحمن النجومي، ثم مع يونس الذكهم، وكان على خلاف مع الاثنين، وقد استدعاه الخليفة إلى أم درمان وأرسله إلى دنقلا، وذلك لأن جنود رايته كانوا لا يأتمرون بأمره أحد غيره . ثم ذهب في عام ١٨٩١م إلى كسلا حيث نشبت خلافات بينه وبين أحمد فضيل، وفي عام ١٨٩٤م دافع بشدة عن كسلا، فبر أنه اضطر في نهاية الأمر إلى الفرار إلى قوز رجب. ثم انضم بعد ذلك إلى جيش الشمال وأصبح واحداً من المحرضين في المؤامرة القذرة التي دبرت ضد محمد ود بشارة في دنقلا عام ١٨٩٦م.

(٢) خطاب عربي دفع الله إلى الخليفة عبد الله بتاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٣١١هـ الموافق ٢١ ديسمبر ١٨٩٣م، المهدية ٣٢/١ .

(٣) رانزي أحد سلاطين الزاندي - الابن الثاني لوانسو واين أخ ياميو. تقع قريته، دارو بالقرب من نهر دورو أحد روافد نهر أولي. كان تارة يساعد الأنصار، وتارة يساعد البلجيكين حسب ترجيح كفة كل منهما.

(٤) ياميو أو أميو: سلطان الأزاندي - وهو ابن ياسمو زعيم ندورما - كان والده ومجموعة قوية من الزاندي قد غادروا نهر يوبو، وهاجروا نحو الشرق إلى نواحي مدينة ياميو الحالية، وكان ذلك في عام ١٨٦٠م. كان يساعد البلجيكين أحياناً ويقاتل الأنصار طوال الوقت. وبعد نهاية دولة المهدية أهدى عدائه الواضح للبلجيكين ولقوات حكومة السودان قبض عليه في عام ١٩٠٥م. وجرح جرحاً تسبب في موته حيث توفي بالمستشفى بعد ثلاثة أيام من اعتقاله.

(٥) خطاب عربي دفع الله إلى الخليفة عبد الله بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٣١٦هـ الموافق ٣١ يوليو ١٨٩٨م، تقرير مخابرات السودان، رقم ٦٠، ملحق رقم ٦٣ ص ١٠٤ - ١٠٨ .

(٦) كوليتز، ذكر سابقاً، ص ١٧٢ - ١٧٣م.

(٧) ابن شيخ الرزيقات مادبو علي الذي قله حمدان أبو عنجة في عام ١٨٨٦م. خلف موسى والده على زعامة القبيلة واستدعى إلى أم درمان عام ١٨٩٥م حيث سجن وذلك بعد اتهام الخليفة له بمساعدة سلاطين باشا على الهرب. ظل في السجن عاماً كاملاً ثم أطلق الخليفة سراحه بعد ذلك، فهرب من أم درمان مع نفر من قبيلته حفية معركة كروى. في البداية قاتل على دينار ثم تحالف معه بعد ذلك وتوفي عام ١٩١٢م.

(٨) علي دينار - ابن الأمير زكريا بن السلطان محمد الفضل، ولد سنة ١٨٦٥م. هاجم عام ١٨٩٨م ملك تغلي علي رأس بعض جنود المهدية. حينما علم بهزيمة الأنصار في معركة كروى غادر ورجاله إلى دارفور، وخضع للحكومة الإنجليزية المصرية، ودفع لها الجزية ثم ثار عام ١٩١٦م ومات وهو يحارب في كولور جنوب زالنجي.

(٩) كوليتز، ذكر سابقاً، ص ١٧٤ - ١٧٦.

(١٠) الاستخبارات، ١٢/٣/١١، تقرير الاستخبارات السودانية، رقم ١٠٤ من ١ إلى ٣١ مارس ١٩٠٣م - ص ٢٤ - ٢٦ .

(١١) كوليتز، ذكر سابقاً، ص ١٧٧.

أحمد فضيل

أسرع الأمير أحمد فضيل فى سير حثيث نحو أم درمان ، فقد ذهب بأمر من الخليفة عبد الله لتجنيد قوات من القصارف والقلابات وإحضارها لحماية أم درمان التى يهددها أعداء الإسلام. ولم يكن بعيداً من أم درمان عندما جاءه النبأ الصاعق بأن أم درمان قد سقطت وأن الخليفة قد هزم فى كررى، ونجا من الأعداء الذين أخذوا يضيّقون عليه الخناق وأنه جمع من بقى حياً من جيشه واتجه إلى كردفان.

توقف الأمير لبعض الوقت وقرر أن يكتب خيراً تلك التكية عن جنوده، وتقدم نحوهم وأفادهم بأن الخليفة المنتصر ليس بحاجة إلى عونهم ولكن الواجب يملئ عليهم التوجه إلى الغرب. وكان الأمير يأمل فى اللحاق بالخليفة بأى وسيلة ويود أن يتوقف قليلاً ثم يواصل سيره إلى كردفان.

جاء إليه رسولان من جانب العدو يحملان رسالة من سلاطين فيها عروض مغرية ، لكن الأمير الصارم استشاط غضباً ووجه ضربة بسيفه أطاحت برأس أحد الرسولين، وبعد أن ضرب الآخر بعرض سيفه قال له:

« قل لهذا الكلب الذى أرسلك والأتراك الكفرة الذين يخدمهم، إن جندى الله وجندى المهدي خليفته لا يستسلم، بل إنه يموت من أجل قضيته وإننى سأقاتل حتى النهاية. احمل ردى لذلك المرتد الذى خان إيمانه مرتين وأعلمه أن مشواكم جهنم جميعاً أنتم وهم. أما بالنسبة إلينا أيها الأصحاب فلنلحق بخليفة المهدي لنقاتل ونموت بجانبه وسيرزقنا الله إحدى الحسينين النصر أو الشهادة، هيا فلتتحرك لقد اضعنا وقتاً كبيراً جدّاً^(١).

قفل الأمير بجيشه عائداً ومحاذياً الضفة الشرقية للنيل الأزرق ليعبره عند التقائه برافده الرهد. بالرغم من أن الرجال كانوا يتذمرون ويودون الرجوع للقصارف حيث توجد أسرهم وحيث تتوافر لهم المؤن والذخائر، غير أن الأمير أحمد فضيل رفض ذلك وواصل سيره. وقبل رفاة لحق به الأمير الشريف يوسف الهندى^(٢) الذى خضع للإنجليز بعد أن فارق الخليفة عقب معركة كررى. وكان الخليفة قد أمره هو وبعض العلماء المتبحرين فى علوم الدين الإسلامى بالرجوع إلى مناطقهم وأن يعملوا على تعليم القرآن حتى لا يخبو نور الإسلام^(٣).

رجع الشريف لأم درمان وأمره الإنجليز بالذهاب لمقابلة الأمير أحمد فضيل وحثه على الاستسلام. تحدث الشريف يوسف إلى الأمير أحمد فضيل وحاول إقناعه بأن الأمر قد قضى وأنه من الأفضل له الخضوع وانتظار غد أفضل، فرد عليه أحمد فضيل بقوله:

- نحن بايعنا المهدي وبايعنا خليفته على ألا نفر من الجهاد إما أن نستشهد أو نتصير، ولكن فشتك فإني واجد أمارات الكفرة في جييك، وأنا لا بد أن ألحق بخليفة المهدي ولو علي سنقور جوادى^(٤).

وفارقه وقفز علي جواده أمراً جنوده بالتقدم.

إلا أن السخط قد تزايد وسط جيشه وبعد فترة قليلة من لقائه بالشريف يوسف الهندي وبعد أن أقام معسكره جاءه أحد ساسة الخيل لمقابلته وقال له:

« سيدى إن الأمير علي فرفار والأمير فضل حسنة^(٥) زيدان يريدان اغتيالك وإننى كشفت دسيتهم وعرفت ذلك ».

وقال لى:

- إما أنك معنا وتقسم على ذلك، أو أنك ضدنا وفى هذه الحالة سنقتلك.

وفكرت فى أن موتى سيكون سبباً لموتك فأقسمت لهما على نحو ما أرادا فتركانى حراً، فحثت اليمين لأن حياتك أهم من حثى اليمين» قال له الأمير أحمد فضيل:

لا جناح عليك، الله يعلم نواياك، عليك فقط صيام ثلاثة أيام كفارة بيمين، أما أنا فإننى أعلم ماذا على أن أفعل.

جرد الأمير سيفه وأخفاه تحت وسادته وتمدد فى فراشه كأنه نائم، تسلل علي فرفار للخيمة معتقداً أن الأمير أحمد فضيل يغط فى النوم فإذا بالآخر يباغته ناهضاً، ويأخذ سيفه ويضربه على كتفه بعرض السيف قائلاً:

أعرف كل ما تدسونه . اخرج أيها الكلب.

خرج علي فرفار يكسوه العار وذهب لمقابلة فضل حسنة وقال له :

- إن أحمد كان يعلم بالأمر كله، عاملنى باحتقار ولم يعطنى حتى شرف الخوف منى أو حتى مبارزتى إذا فعلينا أن نتوب.

حضر الاثنان لمقابلة أحمد فضيل وقالوا له:

- لقد أغروا الشيطان، اعفُ عنا لعل الله يقبل توبتنا.

عفا عنهما أحمد فضيل^(٦) ومنذ ذلك اليوم لم يفارقاه بل حاربوا معه بإخلاص وشرف ولم

يحاولا بعد أن يثبوا الرجال عن واجبهـم.

وفى معركة النخيلة كانا قد امتنعا عن القتال، ليس جبنًا إذ إن الجبن لا يعرف طريقه إليهما، بل غيرة من محمود ود أحمد فقد كان الإثنين يقودان جناحي الجيش وبامتناعهما عن الحرب إنما أرادا أن يثبتا للخليفة أنه أخطأ حين سلم قيادة الجيش لقائد صغير السن كمحمود، بينما كل أصحاب المهدي الذين تعرضوا فى الحرب وبرعوا فى حيلها مازالوا موجودين. وبعد هزيمة محمود وأسره فرا إلى القضايف وطلبا من أحمد فضيل أن يتوسط لهما لدى الخليفة فهما يعرفان الحب العميق الذى يـكـنه للأمير أحمد وظنا أنهما سينالان عفوه بتدخل الأمير.

عقب هذه الحادثة تحرك الأمير أحمد فضيل وواصل سيره الشاق، وعند ملتقى النهرين وجد أن الطريق قد سيطرت عليه مدافع العدو، هنا حار الأمير بين أمرين: أيقاـتل أم يعود للقاعدة؟! وكان يبدو على رجاله عدم الثبات، فتقهقر الأمير، وعندما وصل إلى القضايف وجد أن المدينة قد استسلمت، وهنا صار الأمر جلياً إذ لا مجال هذه المرة للتردد بل يجب اللحاق بالخليفة مهما كلف ذلك. وتحرك الأمير وهو أكثر قوة يتبعه رجاله دون تذمر، وعند وصوله لمدينة الروصيرص وجد العدو فى انتظاره هناك واشتبكوا معه فى معركة فقد فيها الأمير عدداً كبيراً من جنوده ولكنه تمكن من عبور النيل على الرغم من نيران مدافع العدو المشتعلة وبعد لأى وبلاء عظيم تمكن الأمير من الانضمام لرجال الخليفة بكردفان ومعه عدد قليل من رجاله.

كان هجومه بطولياً وجنوبياً ينم عن شجاعة لاتكبح وبسالة خارقة وجسارة لا حدود لها، له قلب لا يعرف معنى الخوف يناضل نضال الإنسان الذى لا يعنى الموت عنده إلا الموت فى سبيل الله.

كان يخوض المعارك من معركة إلى أخرى ويواجه هجوماً بعد هجوم حتى لقي ربه فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م بأمر ديكرات حيث كان يحارب ببسالة كعاداته ويحث رجاله. كان سيفه يبارز ويحتدل، وكان عرقه يسيل على جبينه ويمتزج بالضبار والدم مكوناً قناعاً مخيفاً، كان كأنه فى جفن الموت والموت نائم بينما يتساقط الأعداء من حوله، وهو يجاهد غير سامع ولا راء سوى عدوه أمامه، حتى سمع صوت الخليفة يناديه، الأمر الذى أعاد إليه وعيه وجعله يظن لوضع المعركة، خسران المعركة وتمزيق جيش الخليفة عبد الله إرباً إرباً.

ترجع الخليفة على الأرض واتجه ناحية القبلة، لم يعد هناك ما يمكن عمله، والموت أفضل من عار التقهقر والرجوع، وكانت هذه تقاليد أبطال السودان القديمة حينما يخسرون الحرب

وعندما ينقطع الأمل من نفوسهم بالنصر. مازال أحمد فضيل ملازماً للخليفة فالأثنان من قبيلة
التعايشة ومن عشيرة الجبارات وعبد الله ليس فقط خليفة المهدي بل هو ابن خاله، فصلة
الرحم والإخلاص قد اجتمعتا.

أمه حواء بنت علي الكرار وهي أخت شيخ محمد والد الخليفة عبد الله الذي كان يحبه
كأبيه، ففي صغره صحبه معه في معارك المهدي، ثم أرسله لكردغان مع عثمان آدم، بعدما
أوكل إليه قيادة ملازميه. وبعد موت أحمد على أرسله لقيادة جيش الشرق المرابط
بالقضارف، ولم يكن في ذلك الوقت قد بلغ الثلاثين، وبالرغم من ذلك فقد كان محارباً
محنكاً ومؤمناً مخلصاً يربطه بخليفة المهدي حب عظيم، وقد كان يتبعه في حياته، وما هو
الآن يتبعه إلى الدار الآخرة. وشق طريقه مقاتلاً حتي جلس على يسار الخليفة. وطاف الموت
بجناحيه عليهما ودوت الطلقات فسقطا، وكانت النهاية وقضى الأمر. فهنيئاً للذين يموتون
في سبيل الله فيسعدون في جنب الله بدون أدنى شك.

المراجع

- (١) تشريل ولستون، حرب النهر: The River War، لندن، ١٩٦٠م، ص ٣١٥.
- (٢) يوسف محمد الأمين الهندي زعيم ديني ولد في عام ١٩٦٥م، اعتنق المهدية وشارك في عدة معارك في شرق السودان كما شارك في معركة كرري، توفي في عام ١٩٤٢م، ودفن في بري، وهو مؤسس الطريقة الهندية، إحدى فروع السماوية.
- (٣) هؤلاء العلماء هم الشيخ ود الهدوي والشيخ البشير ود مضوي والفكي رقيق أبو فاطمة والشيخ المكاشفي أبو عمر بالإضافة للشيخ يوسف الهندي، أخبرنا بذلك مهدي الطيب الأمير يعقوب.
- (٤) ذكر هذا صالح بن الأمير أحمد فضيل لمهدي الطيب الأمير يعقوب.
- (٥) أميران من التعاضد كانا يقودان راجتين في جيش الغرب، ثم احتلا مواقع في شمال السودان وحاربوا في التمهلة ثم في أم ديكرات حيث أسرا وأرسلوا إلى ربيد.
- (٦) رواية مهدي الطيب الأمير يعقوب.

كرم الله شيخ محمد كركساوي

في عام ١٨٨١م حملت الأخبار نبأ اهتزت له بحر الغزال، وهو أن المهدي المنتظر قد ظهر في الجزيرة أبا على النيل الأبيض. وأخذ التجار العرب الذين كان أكثرهم من الدنقالة والجعلين يتحدثون عن هذا النبأ بحماسة شديدة. فقد بلغهم أن المهدي قد صمد في وجه قوات الحكومة التي أرسلت للقبض عليه، وأنه قد هزمها ثم رحل بعد ذلك إلى جبال النوبة بكردفان ودعا الناس لأن يلحقوا به للجهاد في سبيل الله.

وهبت رياح الثورة على بحر الغزال، حيث قام تجار الرقيق وغيرهم بتسليح جنودهم وتجميع قواتهم التي كان موظفو الحكومة قد شتوا شملها، واتجهوا جميعاً إلى كردفان للحاق بالمهدي، وكان بين هؤلاء التجار أبناء تاجر الرقيق محمد كركساوي^(١) وهم محمد وسليمان وكرم الله، حيث ترك كل منهم تجارته وتوجهوا إلى كردفان. وفي الطريق علموا أن المهدي يحاصر الأبيض فسارعوا لملاقاته هناك، حيث بايعوه وقاتلوا بجانيه حتى ضحت المدينة.

ثم شاركوا في معركة شيكان، وبعد أن تحقق النصر قام المهدي بتعيين كرم الله أميراً على بحر الغزال وأرسله لفتحها. أما أخواه فبقيا يحاربان في الغرب ضمن قوات الراية الحمراء.

كان كرم الله في الخامسة والعشرين من عمره في ذلك الحين، متوسط القامة، ليس بالسمين ولا بالنحيف، فاتح اللون، يحمل خداه شلوخ القبيلة الثلاثة، وله أنف مستقيم، وشفتاه ممتلئتان، كثيف شعر الرأس ويزين وجهه لحية وشارب مهذبان.

كان يلبس جبة مرقعة، وكان صارماً في تعامله مع نفسه ومع الآخرين. كان شجاعاً وصبوراً يتحمل الشدائد بلا أدنى شكوى، ويروى أن رمحاً شك جنبه الأيمن في معركة شيكان حتى سالت دماؤه، فطلب من خادمه أن ينزع الرمح، فتدفق الدم غزيراً إلا أنه قفز على جواده من غير أن يلقي بالاً للدماء المتدفقة حوله وواصل القتال^(٢).

كان كرم الله أنفياً وشجاعاً وماهراً في الحرب وحيلها، وكان يعرف كيف يحسن قيادة الرجال، كما كانت له قوة خاصة من البازنجر^(٣) وهم جند نظاميون ومدربون كان يخوض

بهم كل معاركه.

غادر كرم الله الأبيض علي رأس ألف وخمسمائة من الرجال. وفي الطريق انضمت إليه مجموعات كبيرة من رجال القبائل. وعندما وصل إلى بحر الغزال كان معه خمسة آلاف من الرجال، إذ كان قد انضم إليه كل الجمليين والدناقلة وكذلك القبائل شبه السوداء التي لبّت دعوة المهديّة للجهاد.

حاول لبتون بك حاكم بحر الغزال الإنجليزي الدفاع، ولكن ضباطه وجنوده أخبروه أن الجميع قد تبعوا المهديّة وأنهم قرروا الانضمام لكرم الله، فاضطر لبتون للاستسلام لأنه لم يكن لديه ما يكفي من القوات. وكان مع كرم الله في ذلك الوقت عشرة آلاف رجل فقرر أن يزحف نحو الإستوائية وبدأ في التقدم نحوها لكنه اضطر للرجوع إلى بحر الغزال عندما نشبت بعض حركات التمرد بين الجهادية والعرب، فأعاد الأمور إلى نصابها. ولكنه لم يتمكن من ضم الإستوائية رغم المحاولات العديدة التي قادها ضدها.

عقب وفاة المهدي قام الخليفة عبد الله باستدعاء كرم الله إلى أم درمان لأداء البيعة. وأمره بإخلاء بحر الغزال والحضور إليه بكافة قواته، فتحرك كرم الله ملياً دعوة الخليفة. وفي الطريق تلقى أمراً من الخليفة يطلب إليه الاتجاه إلى غرب البلاد لمساعدة أخيه محمد في إخماد تمرد الرزيقات.

حث كرم الله الخطي نحو دارفور ووصل بعد ليّتين من السير إلى الفاشر التي كان مادبو زعيم الرزيقات يسعى للإحتواء بها، فقبض عليه يوسف ابراهيم عامل دارفور، وسلمه لكرم الله الذي أرسله إلى أخيه محمد عامل شكا. بقي كرم الله في دارفور لمساندة أخيه، ثم عينه الخليفة عاملاً علي دارة، وكان كلا الأخوين مهددين بالأمير يوسف الذي كان يسعى لزعزعة سلطة المهديّة ولضمان استقلال دارفور. ودارت بينهم عدة معارك دامية فقد فيها الأخوان رجالهما وأصبحت تنقصهما الذخائر وقام الفور بمحاصرتهم، فطلبوا النجدة من الخليفة عبد الله الذي كتب بدوره إلى عثمان آدم عامل كردفان يأمره بالذهاب لنجدة الأخوين ومدهما بالسلاح والذخيرة. فسار عثمان آدم سيراً حثيثاً حتى وصل إلى شكا التي كان محاصراً بها محمد الشيخ محمد كركساوي، وتمكن من تخليصه من الحصار^(٤).

انضم محمد لعثمان آدم وزحفا على دارة التي كان الفور يحاصرونها، وكان كرم الله يسعى لاستعادتها. وبعد عدة معارك عنيفة انتصر الأنصار ودخلوا دارة في يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٨٧م الموافق ١١ ربيع الثاني ١٣٠٥هـ^(٥).

لازم الأخوان عثمان آدم حتى وفاته عام ١٨٩١م ثم رجعا إلى أم درمان حيث شاركوا في مؤامرة الأشراف.

وعندما عاقب الخليفة الأشراف قام باستدعاء أبناء كركساوى مع أمراء الراية الحمراء وقال لهم:

- « أنتم لستم من المقيمين، هم الذين حضروا الفتن من أولها واشتركوا في تديرها. وانما أنتم كنتم في البغازات «الثغور» خارج أم درمان وكنتم فانضمتم لهذه الفتن فجأة دون تدبير وإصرار، فلذلك عفوت عنكم ولا أريد أن أقدمكم لمحكمة، ولكن حكمتى فيكم أن تسافروا إلى كسلا للانضمام إلى الجيوش المرابطة بها تحت رئاسة حامد ود على، لتشاركوا في الجهاد ولتنالوا ثواب الشهادة أو النصر »^(٦).

فذهب سليمان ومحمد مع رفاقهما إلى الشرق، ولحق كرم الله بجيش الشمال حيث جرح جرحاً بليغاً في فرقة، ثم قاتل في النخيلة ورجع بعد ذلك إلى أم درمان مع من بقي من جيش محمود ود أحمد. وهناك التقى بأخويه مرة أخرى.

ومما يجدر ذكره أن الخليفة قد تزوج آمنة أخت كرم الله لتوثق صلته بقبائل النيل وأنجبت له ابنته مريم التي تزوجها ابن عمها عبد المجيد بن الأمير يعقوب.

قاتل كرم الله وأخوه في كبرى وبعد الهزيمة بقيا في أم درمان، وقد حاول سلاطين إقناع كرم الله بخدمة الحكومة الجديدة ولكن الأمير رفض، وفي هذه الأثناء سعى السلطان على دينار كذلك لضمه إلى رجاله، فقد كان يعرفه منذ وقت طويل، إلا أنه كان يدرك أن كرم الله لن يقبل الدخول في خدمته طائفاً مختاراً، فاستدعى السلطان اثنين من رجاله الذين يثق فيهم وقال لهما:

- خذا هذين الجميلين المحملين بالذهب واذبها إلي أم درمان وابحثا عن أقرب أصدقاء كرم الله إليه وكاتم سره، وأعطياه هذا الذهب في مقابل شيء واحد، وهو أن يسرق سيف كرم الله، ولا ترجعا بدون هذا السيف.

وكان هذا السيف مشهوراً بحدته وبقصته الأسطورية. ففي أحد الأيام الشديدة المطر، سقطت صاعقة على منزل كرم الله في أم درمان وأحدثت حفرة كبيرة، وعندما أراد عبيد كرم الله زيادة عمق تلك الحفرة لكي يجعلوا منها بئراً وجدوا فيها كتلة من الحديد، فأخذ كرم الله تلك الكتلة إلى الحداد وطلب منه أن يصنع منها سيفاً، وبمجرد أن أنهى صنع السيف تقلده كرم الله وسماه «الصاعقة». وكان هذا السيف يقصم العدو بضربة واحدة، وكان كرم الله

يخوض به كل معاركه ولا يفارقه إلا للصلاة.
ذهب الرجلان وقابلا صديق كرم الله الحميم وأعطياه الذهب ونقلوا إليه رغبة السلطان،
فاستغل ذلك الصديق لحظة ذهاب كرم الله لأداء الصلاة في المسجد وسرق السيف وأعطاه
للسولين، ثم أسرج جملة وهرب معهما خوفاً من غضب كرم الله.
وعندما رجع كرم الله إلى منزله لم يجد السيف في موضعه المعتاد وسأل زوجته :
- أين سيفي؟.

فردت عليه:

- لست أدري.

- ومن الذى حضر فى غيابه؟!

- لست أدري.

خرج كرم الله من داره وأخذ في التحرى حتى انتهى إلى أن صديقه قد حضر إلى منزله في
غيابه وأنه أسرج جملة وغادر أم درمان في صحبة رسولى السلطان علي دينار.
ركب كرم الله جملة وانطلق في أثرهم، وعندما وصل إلى الأبيض حاول المكي
اسماعيل ابن الشيخ اسماعيل الولى أن يثنيه عن الذهاب إلى دارفور خوفاً من انتقام السلطان،
فرد عليه كرم الله بقوله:
- لن أترك سيفي، يجب أن استعيده أو أموت دونه.

ووصل كرم الله إلى الفاتر في نفس اليوم الذى وصل فيه مبعوثا السلطان اللذان وصلا في
الصباح ووصل كرم الله في المساء، وأعلن وصوله للسلطان الذى أمر بأن يستقبل كرم الله
بحفاوة وتقدير.

ولما انتهت مظاهر الاحتفاء به ضيقاً، استقبله السلطان وأعطاه سيفه قائلاً له:
- خذ، لقد استعملت معك الحيلة ولو لم أفعل ذلك لما حضرت إلى هنا أبداً، فأنا
أريدك أن تقود جيشي وتدربه على فنون الحرب التى أصبحت فيها علماً. فقبل كرم الله
عرض السلطان.

مرت عدة سنوات، وكان لكرم الله عدد من الأعداء، فقرر هؤلاء أن يوشوا به لدى
السلطان، فذهب ثلاثة منهم الى السلطان علي دينار وقالوا له:

- سيدى إن كرم الله الذى أغرقته بأفضالك يسعى لأن يحل محلك، وهو نادم على الوقت
الذى ظلت فيه السلطة في يدك لايفتا يتنقذك، فخذ حذرک لأنه قد تمكن من استمالة جيشك،

وإذا أراد أن ينقلب عليك فإن الجنود سيطيعونه وسيقتلونك، وهو يتفاخر بذلك.

فكر علي دينار ملياً ثم قال لهم:

- اذهبوا إلى كرم الله واطلبوا منه أن يذهب إلى الأمير فلان، وعندما يصل إليه سلوه هل قال ما قال، ثم تعالوا وأخبروني بما حدث.

وذهب المتآمرون الثلاثة لتنفيذ أمر السلطان وعندما جاء كرم الله لأداء صلاة الصبح في المسجد أرسل ذلك الأمير في طلبه، فذهب إليه كرم الله بعد أن تقلد سيفه وابتدر أحد المتآمرين الحديث قائلاً:

- هل صحيح أنك قلت كذا وكذا.

- وأنتك تنوى أن تخلع سلطاننا؟.

وعلى الرغم من أن كرم الله لم ينطق بتلك الكلمات إلا أنه سواء أكان ذلك تحدياً لهم أم مللاً منهم أم كبرياء عليهم رد بقوله:

- نعم، لقد قلت ذلك.

فوقف أحد المتآمرين خلفه وضربه بفأس علي عنقه، فسقط كرم الله على الأرض ومات في دقائق معدودة ثم أخذ المتآمر السيف من على الجنة وذهب إلى السلطان يتبعه شريكاه وأخبروا السلطان بموت كرم الله فامتشاط علي دينار غضباً وقال لهم:

- أنا لم أقل لكم اقتلوه ولكني طلبت منكم أن ترجعوا لتخبروني بما يقول.

وأمر في الحال بتقييدهم ووضعهم في السجن وفي اليوم التالي تجمع الناس تحت شجرة «القاضي الأطرش» التي كان يحيط بها سهل واسع وكان السلطان متعوداً علي عقد مجلسه ومحاكماته تحتها.

وكانت قد أعدت حفرة كبيرة، وأمر السلطان بأن يوضع فيها السجناء الثلاثة وأن يدفنوا حتى صدورهم ثم يرجموا بعد ذلك حتى الموت، ونفذ الحكم في الحال.

وانتقم السلطان بذلك لمقتل كرم الله الذي لم يكن يريد، والذي كان بقعة سوداء تشوه اسم السلطان. وأمر بدفن كرم الله بإكرام. ثم احتفظ بسيفه حتى وفاته. وهكذا قدر الله أن يكون مصير كرم الله في دارفور (٧).

- (١) كان أجداد كرم الله قد استقروا في جزيرة في منطقة دنقلا اسمها «كركوس» ومن هنا جاء لقب الكركساوى.
- (٢) روى ذلك محمود خادم كرم الله لابنه يوسف الذى نقله لى بدوره.
- (٣) البازنجر اسم أطلق على الجنود السودانيين الذين كان يجندهم تجار الرقيق في عصاباتهم، أما في وثائق المهديّة فيطلق هذا الاسم على قوات الأخوين محمد وكرم الله كركساوى، وعلى قوات الأخير بصفة خاصة.
- (٤) مهديّة ١٢/١، خطاب عثمان آدم إلى الخليفة بتاريخ ١٤ صفر ١٣٠٥ هـ .
- (٥) المصدر السابق ، خطاب ربيع الأول و ١٧ ربيع الآخر ١٣٠٥ هـ.
- (٦) جهاد ، ص ١٧٢ .
- (٧) كل قصة كرم الله مع على دينار حكايها لى ابنه، يوسف بن الأمير كرم الله كركساوى، في ٣ نوفمبر ١٩٩١م وذلك في منزل كرم الله نفسه في ود أرو بأمر درمان.